الجزء الثانى

الحرب العالمية من سنة ١٩١٤ الى سنة ١٩١٨

مقـــدمة

حينما وضعت مسودة هذا الكتاب امتنعنا عن تضمينها تحليلا لحرب سنة ١٩١٤ — ١٩١٨ لشعورنا بأنه مع توفر المـادة الكافية لهذا التحليل سواء فى دور المحفوظات ، وفى الشهادات التى أدلى بها الأشخاص ، فان الجو كان مايزال متشبعا بحرارة الجدل العلنى والمصالح الشخصية لدرجة تحول دون قبول التحكيم قبولا هادئا لاتثور له العواطف . وقد كان كل همنا أن الدروس المستخرجة من المـاضى لإنارة المستقبل التى هى فى اعتقادنا دروس حيوية حقيقية ، لاتضيع فائدتها بسبب هذا الجو السائد . فان الذى نتوخاه انمـا هو انعاش روح البحث العلمى ، لا الجدل والمناقشة .

وفضلا عن ذلك فاننا لم نشعر بأن فحص تاريخ حديث مثل هـذا التاريخ أمر ضرورى للغرض الذى نرمى اليه . فقد كان غرضنا استخدام نظارة (آلة تعظيم المرئيات) التاريخ السالف — أى مجموعة تجارب العالمين العتيق والحديث — لتكوّن مجهرا (مكروسكوبا) ينظر فيه القارئ بنفسه فيكتشف الدروس المستقاة من سـنة ١٩١٤ وكان يظهر أن عدسياته بها القوة الكافية لتمكينه من رؤية هذه الدروس بوضوح وجلاء .

على أن أصدقاءنا من النقاد الذين عرضنا عليهم المسـودة الأولى ألحوا علينا بأن نضمنها مطالعة لسنة ١٩١٤ — ١٩١٨ قصد مطابقة التجارب السالفة على التجارب الحديثة بوضعها على قدم المساواة . وبحجة أن القليل من الطلبة توفرت لديهم أوقات الفراغ والفرص لتنقية سواد المـادة التاريخية . فاذا كنت باذعانى لهذه المقترحات اصطدم بجراحاتى القديمة فالعيب هو عيب طريقة المعالجة ، لاعيب الروح الباعثة عليها . على أنى بحصر البحث على المدى الذى بلغه كل من الاقتراب المبـاشر ، والاقتراب غير المباشر فى استخدامهما ، والنتائج التى ترتبت على هذا الاستخدام فانى آمل أن أوفق الى ادارة دفة سفينتى بحيث لاترتطم بصخور العواطف والحقد . ولكيما نضيق مجال المناقشة والمشادة فان مطالعاتنا ستقتصر على موضوع الاستراتيجية بصفة رئيسية . أستراتيجية الحملات المتنوعة . ولا تتجاوزها الى موضوع السياسة الحربية الا بمقدار صغير تقضى به الضرورة .

الباب الحادى عشر

الخطط ونتائجها فى المسرح الغربى سنة ١٩١٤

النقطة التى تبدأ منها مطالعة حملة الجبهة الغربية لابد أن تكون الخطط الموضوعة قبل الحرب . فالحدود الفرنسية — الألمانية كانت ضيقة لاتجاوز ١٥٠ ميلا طولا ، ولذا كانت تضيق بمناورات كل الجنود التى أوجدها نظام التجنيد الاجبارى وهيأها التطور . والطرف الجنوبى — الشرقى لهذه الحدود يرتكز على بلاد "سويسره" ، وبعد أن تمتد مسافة قصيرة فى أراض مسطحة بالقرب من "بلفورت" ، تمتد مسافة ٧٠ ميلا على طول جبال "الفوزج" ومن هناك يمتد الخط بسلسلة من القلاع تكاد تكون متواصلة لا انقطاع بينها متخذة "إبينال" و"تول" و"فردون" قاعدة لها . وبعد "فردون" وعلى مقربة منها تقع حدود "البلجيك" "ولكسمبورج" . وفى فترة التجدد واعادة البناء التى أعقبت كوارث سنة ١٨٧٠ كانت خطة الفرنسيين تنطوى على دفاع افتتاحى قاعدته قلاع الحدود ، تأتى بعده ضربة مضادة حاسمة . ومن أجل ذلك أوجدوا مجموعة القلاع العظيمة على طول حدود "الالزاس — واللورين" وتركت بينها فتحات مثل فتحة "ترويه دو شارم" بين قلعتى "إبينال" و"تول" لتكون « قناة » يجرى منها الغزو الألمانى المنتظر حتى تكون الضربة المضادة أكثر ضمانا وأشد مفعولا .

وهذه الخطة كانت تمتاز بقدر معين من الاقتراب غير المباشر ربما كان كل مافى الاستطاعة عمله نظرا لضيق الحدود وحجم كل الجنود الفرنساوية المجندة على النظام الاجبارى ، دون المساس بالأراضى المحايدة .

غير أن (مدرسة) طائفة جديدة ، أى مذهبا جديدا ، من الأفكار نشأت فى العقد السابق لسنة ١٩١٤ ، زعيمها (نبيها) الكلونيل "دوجراند مايسون" . عيبت هذه الخطة بحجة أنها تناقض الروح الفرنسية ، وأنها « تكاد تكون مضيعة تامة لفكرة الحركات التعرضية » . وهنا وجد مروجو فكرة Offensive à Outrance «التعرض بأقصى حد ممكن» مشجعا لنواياهم فى شخص الجنرال "جوفر" الذى تعين رئيسا لهيئة أركان الحرب العامة فى سنة ١٩١٢ فانتهزوا هذه الفرصة وتولوا السيطرة على الآلة العسكرية الفرنسية ، وألقوا الخطة القديمة من حالق ، وضربوا بها عرض الأفق ثم أوجدوا الخطة الجديدة التى أصبحت الآن مشهورة ، أو سيئة السمعة ، وهى الخطة "السابعة عشرة" . وهذه الخطة عبارة عن اقتراب مباشر محض فى صورة تعرض طائش ضد القلب الألمانى (أى منتصف الجيش الألمانى) تقوم به « كل القوات متحدة » . ومع ذلك فكان الفرنسيون فى خطتهم هذه القائمة على الحركات التعرضية الجبهية ،

على كل الجبهة ، يعتمدون على قوتهم العددية التى لا تزيد عن قوة العدو . مع أنه يستطيع استمداد العون من منطقة حدوده المحصنة ، فى حين أنهم حينما يندفعون الى الأمام يتبرأون من كل ميزة يستفيدونها من أماكنهم المحصنة . والشيء الوحيد الذى روعيت فيه التجارب التاريخية وسلامة الذوق فى هذه الخطة هو أن قلعة "متس" كان مقررا لها أن تستر لا أن تهاجم بالذات . بل أن يمر الهجوم من جنوبها وينفذ الى "اللورين" ، ومن شمالها كذلك . وهذا الجناح الأخير (أى الهاجم من شمالها) يوالى حركاته التعرضية الى أراضى "لوكسمبوج" البلجيكية اذا ماأخل الألمان بحياد البلاد المحايدة . ومن الألغاز التاريخية أن الخطة الفرنسية استمدت الهامها من "كلاوزيفتز" الألمانى ، فى حين أن خطة الألمان كانت أقرب الى الخطة النابليونية فى أصلها ، وان كانت ما تزال أقرب من الهانبالية .

أما نصيب جنود التجريدة البريطانية فى الخطة الفرنسية فكان قد تمت تسويته فى العقد السابق لسنة الحرب تسوية كان أثر الحساب فيها أقل من أثر صبغ التنظيم العسكرى البريطانى والرأى البريطانى بالصبغة « الأوربية » . وهذا النفوذ الأوربى جر بريطانيا تدريجيا دون أن تشعر لأن تقبل ضمنا دور الملحق أى التابع للجناح الفرنسى الأيسر . بعيدة عن استغلالها التاريخى لسرعة الحركة والتنقل التى أعطتها اياهما قوتها البحرية . وفى مجلس الحرب الذى عقد حينما نشبت الحرب أشار اللورد "روبرتس" ، الذى استدعى من التقاعد ، بارسال قوة التجريدة البريطانية الى ساحل البلجيك — حيث كانت تزيد المقاومة البلجيكية صلابة . وكانت بمجرد الموقف الذى تتخذه تهدد الجناح الخلفى للجيوش الألمانية أثناء زحفها مجتازة "بلجيكا" الى فرنسا . على أن الجنرال "هنرى ولسون" بصفته مديرا للعمليات الحربية كان قد أعطى وعدا عن هيئة أركان الحرب العامة لأن تعمل بالتعاون مع الفرنسيين مباشرة . فقد مهدت المفاوضات العسكرية غير الرسمية التى جرت بين سنة ١٩٠٥ وسنة ١٩١٤ السبيل لقلب السياسة الحربية العتيقة التى اتبعتها انجلترا منذ أجيال .

وهذا «الأمر الواقع» لم يتغلب على الفكرة الاستراتيجية التى أبداها "روبرتس" فحسب ، بل تغلب أيضا على رغبة "هايج" فى إرجاء انزال الجنود الى البر حتى يصبح الموقف أكثر وضوحا ، وحتى على اعتراض "كتشنر" ذلك الاعتراض الذى اقتصر على تجمع قوة التجريدة مقتربة من الفرنسيين ومن الحدود بهذه الدرجة .

وكانت الخطة الفرنسية المنقحة هى الشيء الوحيد الذى يجعل الخطة التى وضعها "الجراف فون شليفن" فى سنة ١٩٠٥ اقترابا غير مباشر حقيقة . فلما وجد الألمان أنفسهم أمام سور من القلاع التى أقامها الفرنسيون على حدودهم أصبح الطريق العسكرى أمامهم ، الذى يقضى به المنطق ، هو الدوران حول هذه القلاع — عن طريق "بلجيكا" . فقد صمم "شليفن" على انتهاج هذا السبيل والابتعاد عن القلاع الفرنسية بقدر الامكان . ومن الغريب أن القيادة

الفرنسية ، حتى حينما غزيت البلجيك فى شهر أغسطس سنة ١٩١٤، ما كانت تعتقد أن الالمانيين ينفذون الا من أقصر طريق، أى جنوبى نهر "الموز". أما خطة "شليفن" فقد كانت حشد سواد القوات الألمانية على الجناح الأيمن لتدور هذه الدورة الهائلة . فكان المقرر أن يكتسح الجناح الأيمن "بلجيكا" من أولها الى آخرها وفرنسا الشمالية ويستمر فى قطع قوس متسع ثم يدور تدريجيا نحو الشرق. ولما تمر منتهى ميمنة هذا الجناح بجنوبى "باريس" وتعبر نهر "السين" بالقرب من "روين" فانها تصدّ الفرنسيين وترجعهم نحو نهر "الموزيل" فيقعون بين المطرقة والسندان الذى وراءهم المكوّن من قلاع "اللورين" وحدود "سويسرة" .

على أن المهارة الحقيقية فى هذه الخطة وكونها غير مباشرة ليست فى الدورة الجغرافية ولكنها فى الفكرة التى أملت توزيع الجنود . فقد كان القصد الحصول على مفاجأة افتتاحية بادماج فيالق احتياطية بالفيالق العاملة فى الكتلة القائمة بالحركات التعرضية، من أول الأمر، فمن الفرق التى بلغ عددها بعد هذا الادماج ٧٢ فرقة ، خصصت ٥٣ فرقة لكتلة الدوران . ووضعت عشر فرق مقابل "فردون" لتكون محورا للدوران . ولم يترك للجناح الأيسر على طول الحدود الفرنسية سوى تسع فرق . وانقاص الجناح الأيسر على هذه الصورة الى أصغر حجم ممكن كان نتيجة حساب يشف عن المهارة والدهاء ، يزيد تأثير الكتلة الدائرة بسبب ضعفه . لأن الفرنسيين الهاجمين فى "اللورين" اذا ضغطوا الجناح الأيسر وأرجعوه نحو نهر "الرين" تعذر عليهم صد الهجوم الألمانى الآتى من خلال البلجيك . وكلما تقدموا ازدادت مصاعبهم فمثل موقفهم كمثل باب دائر حول محور له اذا ضغط الانسان بشدة على أحد جانبيه دار جانبه الآخر حول الانسان وصدمه من الوراء . وكلما ازداد ضغطه كلما اشتدت الضربة . فمن الوجهة الجغرافية كان حجم القوات الهائل بالنسبة لمسرح العمليات يجعل حركة "شليفن" باختراقها بلاد البلجيك حركة اقتراب استراتيجى غير مباشر بمقدار محدود . أما من الوجهة المعنوية (النفسية) فكان التصميم الذى وضعه لتوزيع القوة فى الجناح الأيسر يجعل الاقتراب غير مباشر بصورة قطعية . ثم جاءت الخطة الفرنسية فجعلته بالغا حد الكمال . فاذا استطاع روح فى عالم الأرواح أن يضحك فى سره فما أحرى روح "شليفن" الراحل أن يتملكه الضحك حينما يرى أن الفرنسيين لم يكونوا فى حاجة الى من يستدرجهم الى الشرك الذى نصبه لهم . غير أن ضحكه لا بد أن ينقلب سريعا الى غضب . لأن خلفه "مولتكه" — (الصغير) اسما ولكنه الأكبر من حيث الحذر — ترك خطة "شليفن" أثناء التنفيذ كما سبق له أن عدلها وأفسدها فى الاستعدادات التى اتخذت قبل الحرب .

فانه فى الفترة مابين سنة ١٩٠٥ — ١٩١٤ لما كثرت الجنود زاد قوة الجناح الأيسر بما لا يتعادل مع نسبته للجناح الأيمن . فلما زاده تأمينا جعل الخطة غير آمنة . ثم شرع ينخب فى أساسها نخبا مستمرا الى أن انهارت .

فلما تطورت الحركات التعرضية الفرنسية فى أغسطس سنة ١٩١٤ استهوى تطورها "مولتكه" فقبل التحدى بطريقة مباشرة ساعيا الى حصول حسم فى "اللورين" مرجئا دورة الجناح الأيمن . فلم ينتج ذلك الا تأثيرا وقتيا . ولكنه فى هذه الفترة القصيرة كان قد حول الى "اللورين" ست فرق احتياطية شكلت حديثا كان ينبغى ارسالها الى جناحه الأيمن تعزيزا لقوته . وهذه الزيادة الجديدة جعلت الأمراء المتولين القيادة فى "اللورين" يزدادون أنفة من تنفيذ دورهم المكلفين به الذى يتطلب منهم ضبط النفس . فان البرنس "روبريخت" أمير "بافاريا" بدلا من أن يستمر فى التقهقر ويجر الفرنسيين وراءه أوقف جيشه واستعد للاشتباك فى معركة . ولما رأى الهجوم الفرنسى مبطئا فى تطوره اتفق مع جاره على أن يبتدراه بهجوم منهما . وكان الجيشان يتألفان اذ ذاك من ٢٥ فرقة مقابل ١٩ فرقة فكان ينقصهما التفوق والموقع الاستراتيجى ليجعلا الضربة المضادة حاسمة . فكانت النتيجة مجرد ارجاع الفرنسيين الى حدودهم المحصنة . وبذلك لم يستعيدوا قوة مقاومتهم وزيادتها فحسب ، بل انهم تمكنوا من ارسال جنود نحو الغرب لمعركة "المارن" .

فأعمال الألمان فى "اللورين" أفسدت خطة "شليفن" أكثر مما أفسدها انقاص قوة الجناح الأيمن والدور الذى كان مقررا له وان كان ذلك الافساد بصورة أقل وضوحا . وعلى كل حال فمن هنا جاء السبب المباشر للانهيار . فقد أخذ "مولتكه" سبع فرق من الجناح الأيمن لحصار "موبوج" و "جيفيت" و "انتورب" أو لحراستها . ثم أخذ أربع فرق لتقوية جبهة بروسيا الشرقية . وعند ما دار جيش "كلوك" الكائن فى منتهى الميمنة الى الداخل قبل الأوان ، بناء على طلب جاره وبترخيص "مولتكه" ، وبدورته أعطى حامية باريس فرصة لضربه من الجنب ، كان الواقع ، وهو أن الفرق الألمانية التى كانت موجودة اذ ذاك ١٣ فرقة بقابلها ٢٧ فرقة فرنسية — بريطانية على ذلك الجنب الحاسم ، يبين بأجلى صورة الكيفية التى أضعف بها (جناح "شليفن" الحاسم) — مباشرة وغير مباشرة . لأنه اذا كان ضعف الألمان ناشئا عن انقاص قوة الجناح الأيمن ، فان تفوق الفرنسيين كان ناشئا عن عمل الجناح الألمانى الأيسر الذى لم يكن على شىء من حسن التدبير .

ومع أن معركة "المارن" عبارة عن اجتياز الحد المبهم الكائن بين الاستراتيجية والتكتيك فان تلك الفترة التى تغيرت فيها حالة الحرب تلقى كثيرا من الضوء على مسألة "الاقتراب" . فهى جديرة بالفحص . ولكى تنعكس هذه الأضواء لا بد لها من صفحة تنعكس عليها هى الحوادث التى وقعت .

فارتداد جناح "جوفر" الأيمن فى "اللورين" أعقبه تقهقر قلبه (أى منتصف جيشه) وطرده لا يلوى على شىء فى مقاطعة "الأردن" ، ثم نجاة جناحه الأيسر بكل صعوبة من كارثة الاحاطة به بين نهرى "السامبر" و "الموز" بعد أن كان متأخرا فى انتشاره . فلما أخفقت

الخطة "السابعة عشرة" وتقطعت أوصالها كون "جوفر" خطة جديدة من الانقاض . فاستقر رأيه أن يدور بميسرته وقلبه الى الوراء متخذا "فردون" مركز الدوران أى المحور، بينما يسحب جنودا من ميمنته الممزقة ليشكل منها جيشا سادسا جديدا يجعله على ميسرته .

أما عند الألمان فان التقارير الأولى المنمقة التى أرسلها قادة الجيوش الى القيادة العليا الألمانية عن المعارك التى وقعت على الحدود كانت قد أدخلت فى روعها أنها قد انتهت بنصر حاسم . وبعد ذلك لما رأى "مولتكه" أن عدد الاسرى كان قليلا نسبيا داخله الشك وأخذ يقدر الموقف تقديرا أكثر رصانة . فهذا التشاؤم الذى أبداه "مولتكه" حديثا، باشترا كه مع إعادة التفاؤل الذى أبداه قادة الجيوش أوجدا خطة جديدة ، غير الأولى ، كانت تحمل فى ثناياها بذور الكارثة . فعند ما تقهقر الجناح الأيسر البريطانى فى ٢٦ أغسطس من "لوكاتو" بعد ان تضعضع ، اتجه جيش "كلوك" الأول نحو الجنوب الغربى مرة أخرى . وهذا الاتجاه وان كان سبب اتخاذه إساءة فهم خط الرجعة الذى اتخذه البريطانيون ، من جهة ، فانه كان مطابقا لحركة "كلوك" الأصلية أيضا التى هى الدوران على دائرة متسعة كاسحة . فلما أوصله الى داخل الساحة الواقعة بين "أميان" و "بيرون" حيث كانت العناصر الأولى من الجيش الفرنسى السادس الذى تشكل حديثا ، آخذة فى النزول من القطارات بعد "تحويلها" من "اللورين" . اضطر الجيش السادس لأن ينسحب على وجه السرعة . وبذا ترجح تصميم "جوفر" وهو استئناف التعرض قريبا .

غير أن "كلوك" ما كاد يدور نحو الجنوب . الغربى حتى اضطر أن يدور الى الداخل ثانيا . لأن "جوفر" لكى يخفف الضغط عن البريطانيين كان قد أمر الجيش المجاور له (جيش "لانريزاك") بالوقوف وتوجيه ضرباته الى الوراء نحو الجيش الألمانى الثانى (جيش "بولو") الذى كان يتعقب البريطانيين . فلما أثر هذا التهديد فى "بولو" استعان "بكلوك". ولما هجم "لانريزاك" فى ٢٩ أغسطس أوقف هجمته "بولو" قبل أن يحتاج الى المساعدة ولكنه بالرغم من ذلك طلب من "كلوك" أن يدور لكى يقطع على "لانريزاك" رجعته . وقبل أن يلبى "كلوك" هذا الطلب عرض الأمر على "مولتكه" . ووصل هذا الطلب الى "مولتكه" فى اللحظة التى بدأ فكره فيها يرتبك من جراء الحالة العامة بسبب الطريقة التى كان الفرنسيون ينفلتون بها من بين ذراعيه . وخصوصا من جراء الفتحة التى تواجدت بين الجيش الثانى والثالث . ولهذا السبب صرح "مولتكه" "لكلوك" بأن يغير اتجاهه وهذا معناه التخلى عن حركة الدوران الواسعة الأصلية التى تدور حول الجانب الأبعد من "باريس" . أما الآن فان جناح الخط الألمانى الدائر يمر بالجانب الأقرب من باريس وأمام وجه دفاعات باريس فقد ضحى "مولتكه" بالآمال الواسعة التى تنطوى عليها الدورة الواسعة المرسومة فى خطة "شليفن" فى سبيل السلامة . بأن قصر جبهته وضمها وجعل اقترابه أكثر مباشرة . وكانت النتيجة أنه بدلا من أن يقلل الخطر جلب على نفسه ضربة مضادة مميتة .

فحصل البت فى التخلى عن الخطة الاصلية بصورة قطعية فى ٤ ديسمبر واستعاض عنها "مولتكه" باحاطة القلب والميمنة الفرنسيين فى نطاق أضيق . فكان على قلبه هو أى جيشى الوسط (الرابع والخامس) أن يضغطا جنوبا فشرقا ، بينما تقوم ميسرته (الجيشان السادس والسابع) بتوجيه ضرباتها جنوبا فغربا محاولة اختراق المنطقة المستحكمة التى كانت حاجزا قائما بين قلعتى "تول" و"إبينال". وبهذه الكيفيه ينطبق "الفكان" الى الداخل على جانبى "فردون" وفى نفس الوقت تدور ميمنته (الجيشان الأول والثانى) الى الخارج وتتجه نحو الشرق لتصد أية حركة مضادة يحاول الفرنسيون القيام بها من جوار باريس .

على أن هذه الحركة المضادة كانت قد بدأت قبل ما تحدث هذه الخطة الحديثة أثرها .

فلاحت هذه الفرصة لا أمام "جوفر" الذى كان قد أمر بموالاة التقهقر ، ولكن الذى أدركها هو "غالينى" محافظ باريس العسكرى . ففى ٣ سبتمبر أدرك "غالينى" معنى دوران "كلوك" الى الداخل ، فوجه الجيش السادس تحت قيادة "مونورى" للاستعداد لانزال ضرباته بالجناح الألمانى الأيمن المكشوف ، وفى اليوم التالى تحصل على تصريح بذلك من "جوفر" بكل صعوبة . فما اقتنع "جوفر" حتى أخذ يعمل بحزم وعزم . وصدر الأمر الى كل الجناح الأيسر بالانقلاب والعودة الى الحركات التعرضية العامة ابتداء من ٦ سبتمبر . أما "مونورى" فكان قد سبق الى العمل فى الخامس من سبتمبر . ولما ازداد ضغطه على الجناح الألمانى الحساس اضطر "كلوك" لأن يسحب جزءا من جيشه ثم اتبعه ببقية الجيش لمعاونة حرسه الجنبى المهدد . وبذلك تواجدت فتحة بين الجيشين الأول والثانى اتساعها ٣٠ ميلا . وهذه الفتحة لا يسترها سوى ستار من الفرسان . أما الذى جرأ "كلوك" على هذه المجازفة فهو تقهقر البريطانيين بسرعة أمام هذا القطاع الخالى . فحتى فى يوم ٥ سبتمبر استمر البريطانيون فى سيرهم نحو الجنوب لمدة يوم كامل بدلا من أن ينقلبوا راجعين . غير أن هذا "الاختفاء" كان هو سبب النصر وهو سبب غير مباشر وجاء عن غير قصد . فان البريطانيين حينما انقلبوا راجعين كان خبر زحف قولاتهم على الفتحة السبب الذى أدى "ببولو" لأن يصدر أمره بتقهقر الجيش الثانى فى ٩ سبتمبر . فزالت بذلك الميزة الوقتية التى كان الجيش الأول قد حصل عليها ضد "مونورى" بعد أن تحول عن عمله الأصلى وانفصل عنه ، فتقهقر فى نفس ذلك اليوم . وفى يوم ١١ سبتمبر كان التقهقر قد شمل كل الجيوش الألمانية إما باستقلال كل منها عن الآخر ، وإما بأوامر "مولتكه" . وكانت محاولة القيام بحركة احاطة جزئية محورها "فردون" قد أخفقت وحطم الفك المكون من الجيشين السادس والسابع أسنانه فى دفاعات (استحكامات) الحدود الفرنسية الشرقية . ومن الصعب أن يفهم الانسان كيف ساغ للقيادة الألمانية ، عقلا ، أن تعتمد على احراز اقتحام جبهى بتدبير وقتى اتخذ على عجل ، مع أن الحساب الهادئ الذى عمل قبل الحرب قد أبان لهم خطره لدرجة أدت بهم لأن يتخذوا ذلك القرار العظيم الخطر وهو قرار الزحف عن طريق "بلجيكا" لأنه الطريق الآخر الممكن .

ومجمل القول ان الذى بت فى مصير معركة "المارن" هما صدمة وشق . فالصدمة كانت بهجوم "مونورى" على الجناح الأيمن الألمانى فتسبب عنها شق فى نقطة ضعيفة فى الخط الألمانى هى نقطة اتصال جيشين . وهذا الشق المادى تولد عنه شق معنوى فى القيادة الالمانية .

والذى نلاحظه أمام تلك الوقائع هو أن حركة "كلوك" غير المباشرة ، وهى دورته الى الخارج ، بعد "لوكاتو" كان لها قيمتها فى احباط خطة "جوفر" الثانية — وهى العودة سريعا الى اتجاه الحركات التعرضية . وفى ازدياد سرعة قوة الدفع الخطرة الناشئة من تقهقر الفرنسيين والبريطانيين . كما كانت دورته الى الداخل ، التى جاءت على أثر ذلك ، خطرا عظيما على الخطة الألمانية . ونلاحظ ، ثانيا ، أن اقتراب "مولتكه" الاستراتيجى صار يزداد استقامة (أى يصير مباشرا) وأن الاقتحام الجبهى الذى قام به الجناح الأيسر الألمانى لم يقتصر على الفشل الذى كلفه خسائر ، بل انه لم يأت بنتيجة استراتيجية تعوض ما أصابه من الخسائر .

والقول بأن تقهقر "جوفر" كان اقترابا غير مباشر لا يخلو من المبالغة . فان فرصة معركة "المارن" جاءت عفوا ، فلم تخلق ، حتى ولم يسع فى خلقها أحد . أما هجوم "غالينى" فجاء فى الوقت المناسب ، قبل أن يتمكن الجيشان الألمانيان الأول والثانى من اتخاذ أوضاع جديدة لحراسة الجناح . ولكنه كان مباشرا بدرجة كبيرة جدا لا يستطاع معها الحصول على نتائج حاسمة . وكان يكون مباشرا بدرجة أكبر لو أنه وقع جنوبى نهر "المارن" طبقا للتعليمات الأولى التى أصدرها "جوفر" . وأخيرا ترى أن الحسم الحقيقى أى الحركة التى اضطرت الألمان لأن يتقهقروا ، وان كانت لا تزيد عن ذلك ، كان سببها "اقتراب غير مباشر" جاء على غير قصد فى صورة فصل مسرحى محض . ذلك هو "اختفاء" قوة التجريدة البريطانية ثم ظهورها ثانيا ، الذى حصل متأخرا لحسن الحظ ، أمام نقطة اتصال الجناح الأيمن الألمانى التى لاقت من الشدة ما لاقت وحل بها الضعف . وقد لامها نقاد الفرنسيين على ذلك التأخير وفاتهم أنه جاء بدليل بديع على صدق خرافة الأرنب والسلحفاة وان كان من نوع آخر . فلو أنها أسرعت فى العودة لما وجدت نقطة الاتصال بهذا الضعف . وما كان فى امكان هجوم "مونورى" أن يأتى بالحسم لأنه كان قد وقف قبل ذلك ، بينما كان الفيلقان الألمانيان المأخوذان من نقطة الاتصال لا يزالان سائرين ولم يشتركا فيما حصل .

وفى تحليلنا أسباب تقهقر الألمان لابد لنا من مراعاة عامل كان المعتاد اهماله وعدم مراعاته . ذلك هو الشعور الذى تواجد لدى القيادة العليا بسبب الأخبار الواردة من انزال جنود على الشاطئ البلجيكى واحتمال تهديدها لمؤخرتهم ومواصلاتهم . وهذا الشعور أدى بهم لأن يفكروا فى الانسحاب حتى قبل أن تبتدئ معركة "المارن" . فان القائمقام "هنتش" ممثل القيادة العليا ، حضر الى الجيش الأول فى يوم ٥ سبتمبر بآخر أمر صدر لاتخاذ الخيطة

وأعلمه بأن : " الأخبار رديئة ، وأن الجيشين السابع والسادس أوقفا أمام " نانسى " و" إبينال " . وأن الجيشين الرابع والخامس يلاقيان مقاومة قوية . والفرنساويون يشحنون جنودا بالسكة الحديدية من مينتهم نحو باريس . وأن الانجليز سينزلون جنودا جديدة الى البر على الدوام ، ولا شك فى أنهم ينزلونها على الشاطئ البلجيكى . وهناك إشاعات بقدوم تجريدة روسية الى هذه الجهات . فالانسحاب سيصير أمرا لابد منه "

فان حدة حساسية القيادة الألمانية ضاعفت عدد جنودثلاث أورط من الجنود البحرية نزلت الى البر فى "أوستند" لمدة ٤٨ ساعة لجعلتها فيلقا قوامه ٤٠,٠٠٠ جندى . ويقال ان فكرة الروس أوجدتها مخيلة رجل انجليزى وظيفته حارس فى السكة الحديدية — فيجب أن يقام تمثال فى "هوايتهول" "للحارس المجهول" ومؤرخو المستقبل لهم أن يعتبروا جماعة هؤلاء الزوار الذين زاروا "أوستند" زيارة وقتية ، وخرافة الروسيين ، السبب الأصلى فى الانتصار فى معركة "المارن" .

فتى روعى التأثير الأدبى الذى أحدثته هذه القوات الخيالية ، مع حجز قوات ألمانية فعلا فى البلجيك خشية قيام البلجيكيين بحركة خروج من " انتورب" ، وهذه الحركة تطورت فى يوم ٩ سبتمبر ، فالذى يلوح هو أن ميزان الرأى تثقل كفته كثيرا فى جانب الاستراتيجية التى أوصى بها "روبرتس" على غير طائل والتى لو اتبعت لكان من الممكن أن يكون لقوة التجريدة البريطانية أثر ايجابى حاسم فى النضال لا مجرد أثر سلبى .

وكان " فالكنهاين " الذى حل الآن محل " مولتكه " يقدر التهديد الخفى الآتى من الساحل البلجيكى الى مؤخرة الألمان حق التقدير دائما . فكانت أول خطوة خطاها هى اخضاع "انتورب" ومنها تولدت بذور مناورة فيها رائحة الاقتراب غير المباشر . ومع ان تنفيذها لم يبلغ الدرجة التى بلغها ابتكارها وكان تنفيذها أكثر استقامة (أى الحركة المباشرة) من الابتكار ، فقد كانت كافية لأن تؤدى بالحلفاء الى حافة الكارثة مرة أخرى .

أما التعقب الجبهى الذى قام به الحلفاء فكان قد أوقف قطعيا على نهر" الاين " قبل أن يقرر "جوفر" أن يشكل جيشا جديدا و يجعله تحت قيادة " دوكاستلناو " ليقوم بحركة تجاوز الجناح (وهى حركة يقصد بها تجاوز جناح العدو تمهيدا للالتفاف حوله). وذلك بعد أن رأى أن محاولة " مونورى " الانطواء على الجناح الألمانى غير مجدية (الانطواء على الجناح هى حركة يصل بها جيش أو قسم منه الى الاتصال بجناح جيش العدو من الخلف) . وفى ذلك الحين كانت الجيوش الألمانية قد استعادت اتصال بعضها ببعض وانضمامها وكانت القيادة الألمانية على استعداد لمقابلة مناورة محدودة من هذا القبيل أصبحت الآن فى خط الانتظار الطبيعى . ثم انقضى الشهر التالى فى سلسلة محاولات كانت واضحة كل الوضوح وعقيمة كل

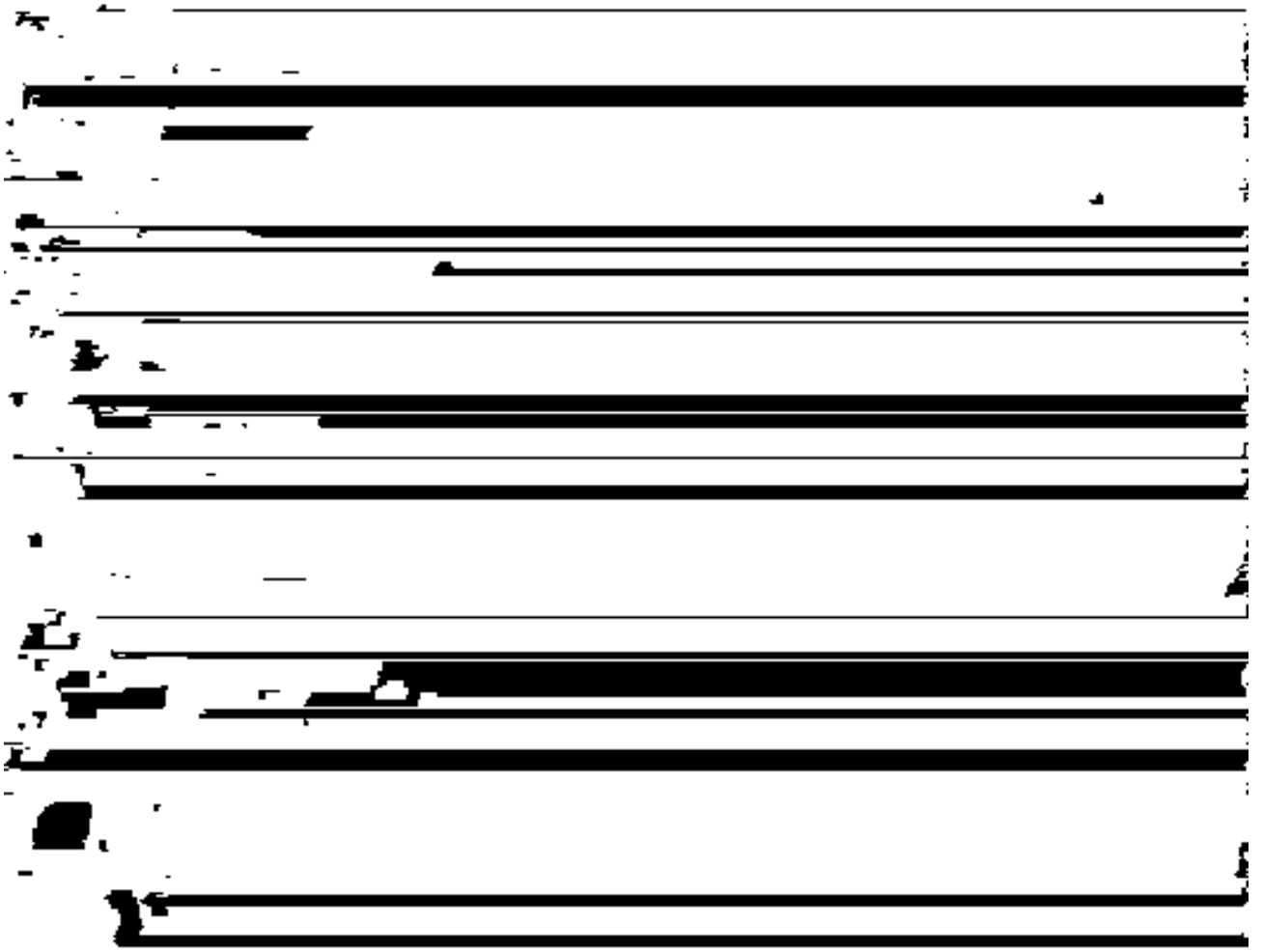

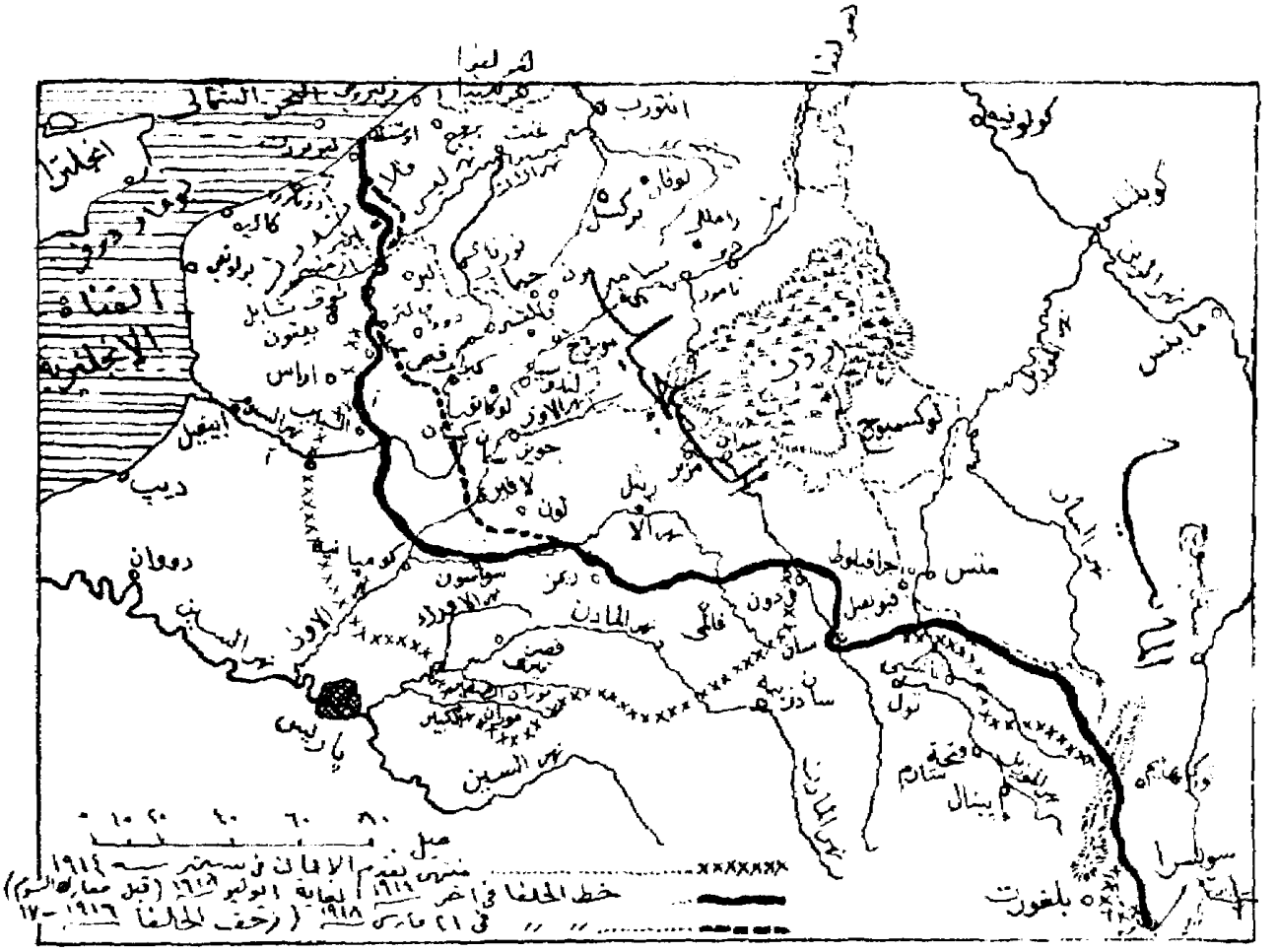
القناة الإنجليزية
البحر الشمالي
انجلترا
كاليه
بولونيه
بيفون
اراس
ابيفيل
ديب
دوفان
بارليس
انتورب
لوفان
تيرلمونت
لوكسمبورج
مونس
فالنسين
كوبلنس
مايانس
سوالسرا
بلفورت
خط الجبهة في آخر ١٩١٦
خط الجبهة في ٢١ مارس ١٩١٨
خط الجبهة في نهاية يوليو ١٩١٨ (قبل هجوم الحلفاء)
(زحف الحلفاء ١٩١٦-١٧)

العقم قام بها كل من الفريقين لينطوى على جناح خصمه الغربى — وهى المرحلة التى سماها الجمهور خطأ "السباق الى البحر" فداخل "فالكنهاين" الملل من هذه الألعوبة قبل أن يملها "جوفر" بمدة طويلة ،ووضع خطة فى ١٤ أكتوبر لشرك نصبه للحلفاء ليقعوا فيه فى محاولتهم التالية التى تنبأ بحصولها . تخصص جيش الجناح الذى شكله حديثا ، لملاقاة هذه المحاولة واتقائها . بينما يقوم جيش آخر مؤلف من الجنود التى أتت من "انتورب" بعد سقوطها وأربعة فيالق شكلت حديثا ، باكتساح الساحل البلجيكى ، فيسحق جناح الحلفاء الهاجمين ويطويه الى الداخل ثم ينقض على مؤخرتهم ،وبلغ به الأمر أن أوقف موقتا الجنود التى كانت تتعقب جيش الميدان البلجيكى بعد خروجه من "انتورب" حتى لا يزعج قيادة الحلفاء قبل الأوان .

ولكن لحسن الحظ أبى الملك "ألبرت" أن يلبى دعوة "فوش" له لأن يشترك فى هذا المجهود الأخير وهو السعى ليجاوز جناح العدو ، وامتنع عن مبارحة ناحية الساحل ، ملهما فى ذلك بالتزام الحذر أو بمراعاة الحقائق المادية . ولهذا السبب أصبح الجيش البلجيكى فى موقف يستطيع فيه مقاومة حركة الاكتساح الألمانية الآتية من الشمال . و فى آخر الأمر استطاع احباطها باغراق الشقة المنخفضة من الشاطئ باطلاق المياه عليها . وهذا اضطر "فالكنهاين" لأن يقوم باقتراب أكثر استقامة فى اتجاهه نحو جناح الحلفاء الذى كان قد امتد حديثا حتى "ايپر" بوصول فيلق هايج من نهر "الاين" ومع أن الزحف الذى حاوله البريطانيون الذين وصلوا أولا ، أى الميمنة والقلب ، كان قد أعيق فان السير "جون فرنش" أمر الميسرة أى "هايج" بأن يحاول تحقيق حلم "جوفر" وهو تجاوز جناح العدو . ولحسن الحظ أيضا اتفق وقوع هذه المحاولة فى الوقت الذى افتتح فيه الألمان هجومهم الذى كان قبل الأوان فخابت فى مبدأها . ولو أن "فرنش" بقى واثقا بهذا "الهجوم" تحت تأثير "فوش" لمدة يوم أو يومين بينما كانت جنود "هايج" تلاقى مشقة زائدة حتى فى المحافظة على أماكنها . فان أوهام الرؤساء الفرنسيين والبريطانيين فيما يختص بحقيقة الموقف ربما كان يرجع اليها بعض الأسباب التى جعلت معركة "ايپر" كمعركة "انكرمن" "معركة جنود" فى جوهرها . ثم ان "فالكنهاين" أيضا بمجرد ماخاب أمله فى اكتساح الساحل بقى مصرا لمدة شهر على محاولة ارغام الحلفاء على الفصل الحاسم ، باقتراب مباشر . ولما فاز الدفاع المباشر بالرغم من ضعفه ، على الهجوم المباشر كما هى العادة ، توطد حاجز الخنادق من حدود سويسرة الى البحر ونشأ التوقف فى الجانبين .

المسرح الغربى من سنة ١٩١٥ الى سنة ١٩١٧ — ان السجل العسكرى (التاريخ العسكرى) للتحالف الفرنسى — البريطانى مدة الأربع سنين التالية هو عبارة عن قصة محاولة تحطيم هذا السد ، إما باختراق الحاجز والنفوذ منه ، وإما بانتهاز فرصة للغامرة بالالتفاف حوله بأى طريقة .

ففى الجبهة الغربية وما احتوت عليه من خطوط متوازية من المتاريس لا نهاية لها أصبحت الاستراتيجية خادمة للتكتيك . وحتى التكتيك أصبح مقيدا فالجانب الاستراتيجى فى سنى ١٩١٥ — ١٩١٧ لايستدعى كثيرا من البحث . ففى جانب الحلفاء كانت الاستراتيجية استراتيجية اقتراب مباشر محض فلم يكن لها أثر فى ازالة هذا التوقف . ومهما يكن رأينا فى قيمة الانهاك ، وفيما قيل من أن كل هذه المدة يجب اعتبارها بمثابة معركة واحدة مستديمة ، فان الطريقة التى تستلزم أربع سنين لاحداث حسم لا تعتبر نموذجا يقاس عليه .

ففى "نوف شابل" اذا كان الاقتراب فى المحاولة الأولى الدقيقة التى حصلت فى سنة ١٩١٥ مباشرا ، فان المفاجأة التكتيكية على الأقل قصدت وأمكن الحصول عليها . أما بعدها فلما اتبعت طريقة " الانذار " بضرب المدافع المستطيل الأجل فقد صارت كل المحاولات عبارة عن هجمات جبهية " مكشوفة " ومن هذا النوع كان كل من التعرض الفرنسى بالقرب من " اراس " فى مايو سنة ١٩١٥ والتعرض الفرنسى — البريطانى الذى حصل فى سبتمبر سنة ١٩١٥ فى " شامپانيا " شمالى " اراس " وفى يوليه ونوفمبر سنة ١٩١٦ على نهر " السوم " وفى أبريل سنة ١٩١٧ على نهر "الاين" وفى "اراس" . وأخيرا التعرض البريطانى فى "ايپر" من يوليه الى أكتوبر سنة ١٩١٧ الذى استغرق مثل الملك شارلس الثانى "زمنا طويلا فى موته" فى مستنقعات " باشنديل " وفى ٢٠ نوفمبر سنة ١٩١٧ أعيدت المفاجأة التكتيكية الى الحياة باستخدام كل الدبابات التى انطلقت بغتة بدلا من ضرب المدافع التمهيدى الطويل الأجل . على أن هذا الهجوم الصغير الذى ابتدأ بحسن الطالع وانتهى سيئ الطالع لايستحق اسم اقتراب غير مباشر من الوجهة الاستراتيجية .

أما فى الجانب الألمانى فقد كانت الاستراتيجية دفاعية محض ، الا فى فترة " فردون " فى سنة ١٩١٦ وهذه أيضا كانت اقترابا مباشرا فى جوهرها ، الا اذا كانت فكرة استنزاف دم العدو الى أن يموت . بواسطة سلسلة من الديدان التى تمتص الدماء تستحق اسم ، غير مباشر . ولكن الاسراف فى بذل الديدان أدى الى الافلاس منها .

والذى يقرب من نوع الاقتراب غير المباشر ، ولكنه دفاعى محض فى غايته ، هو ما فعله "لودندورف" من سحب جزء من الجنود الألمانية الى خط "هندنبورج" فى ربيع سنة ١٩١٧ الذى دل على مقدرته فى التفكير والتمهيد . فلكى يسبق الحوادث ويبادر بالاستعداد لملاقاة التعرض الفرنسى — البريطانى حينما يستأنف على نهر " السوم " ، أمر باقامة خط جديد من الخنادق على وتر القوس المكون من " لنز — نوبون — ريمز " قواه تقوية صناعية عظيمة . وبعد أن أتلف كل شىء فى كل الساحة الواقعة داخل هذا القوس انسحب بطريقة نظامية

الى الخط الجديد الذى كان أقصر من سابقه متنقلا مرحلة مرحلة . فهـذه المناورة التى امتازت بالشجاعة الأدبية أثناء التخلى عن الأراضى ، زحزحت خطة الحلفاء الموضوعة للتعرض فى فصل الربيع ، من أساسها . وبهذه الوسيلة اكتسب الألمـان فرصة سنة قضوها بمنجاة من الأخطار ومن حركات الحلفاء التعرضية المشتركة . وفى هذه المدة تم انحلال الروسيا وتمكن "لودندورف" من بذل مجهوده السامى فى طلب النصر فى سنة ١٩١٨ بقوة متفوقة .

الباب الثانى عشر

المسرح الشمالى الشرقى

فى الجبهة الشرقية كانت خطط الحملة أكثر تقلقلا منها فى الجبهة الغربية وأقل اتقانا ووضعا — وان كانت مناظرها متعددة الصور والأشكال يتحول فيها طالع الحرب من جانب الى جانب كما حصل فى الميدان الغربى والعامل الذى يمكن حسابه فيها هو العامل الجغرافى . أما العامل الرئيسى الذى لا يمكن حسابه فهو معدل احتشاد القوات الروسية . ثم ان بولندا الروسية عبارة عن لسان من الأراضى متسع بارز من بلاد الروسيا الأصلية ومحاط من أجنابه الثلاثة بأراض ألمانية أو نمساوية . فعلى جانبه الشمالى تقع بروسيا الشرقية ووراءها بحر "البلطيك" وعلى جانبه الجنوبى يقع الاقليم النمساوى "غاليسيا" ووراءه جبال "الكربات" تحرس طرق الاقتراب (الموارد) الموصلة الى بلاد المجر . وعلى الجهة الغربية تقع "سليسيا" ولما كانت الأقاليم الجرمانية الواقعة على الحدود مجهزة بشبكة من السكك الحديدية الاستراتيجية ، فى حين أن بولندا مثل الروسيا ، لم يكن لديها الا القليل من وسائل المواصلات ، فان التحالف الجرمانى كانت له ميزة حيوية فى قوة الاحتشاد يقابل بها الزحف الروسى . ولكن اذا انتهج هذا التحالف خطة التعرض فانه كلما توغل فى بولندا أو فى الروسيا ضاعت منه هذه الميزة . ومن ثم فان التاريخ يستدل منه على أن أكثر الطرائق الاستراتيجية مغنما لهم هى استدراجهم للروس حتى يتقدموا الى موقع يتخذونه فيقابلونهم فيه بضربة مضادة بدلا من التزامهم هم خطة تعرضية على أن العيب الوحيد هنا هو أن مثل هذه استراتيجية التى لا وثوق بها تتيح للروس الوقت الكافى للاحتشاد ثم تسيير آلتهم الثقيلة المتعبة التى علاها الصدأ .

ومن ذلك نشأ تشعب فى الآراء بين الألمانيين والنمساويين . فهم متفقون فى مسألة صد الروسيين وتوقيفهم مدة الستة الأسابيع التى كان يأمل الألمان أن يسحقوا فيها فرنسا . وبعد أن يسحقوا فرنسا يحولون قواتهم وينقلونها الى الشرق لتنضم الى النمساويين وتشترك معهم فى القيام بضربة حاسمة ضد الروسيين . أما اختلاف الآراء فكان فى طريقة التنفيذ . فالألمانيون كانوا قد عقدوا النية على الحصول على حسم ضد فرنسا وأرادوا أن يتركوا فى الشرق أصغر قوة مستطاعة . ولم يمنعهم من اخلاء بروسيا الشرقية ووقوفهم على خط نهر "الفستولا" ألا بغضهم لسياسة تعريض اراضى الوطن للغزو . أما النمساويون فكانوا تحت تأثير "كونرادفون هوتسندورف" رئيس هيئة أركان الحرب العامة ، يريدون أن يخربوا الآلة الروسية باتهاج

خطة التعرض فورا . ولما كان ذلك يشغل الروسيين ويلهيهم مدة الحصول على الحسم فى حملة فرنسا رضى "مولتكه" بهذه الاستراتيجية . أما خطة "كونراد" فكانت تنطوى على القيام بحركات تعرضية نحو الشمال — الشرق فى بولندا بجيشين اثنين يحميهما جيشان آخران على يمينهما وشرقيهما .

وكذلك لدى الفريق الآخر كانت رغبة احدى الحليفتين ذات تأثير حيوى على استراتيجية الأخرى . أما القيادة الروسية فلأسباب عسكرية وأخرى جنسية (خاصة بأجناس الأقوام) كانت ترغب أن تحشد قوتها ضد النمسا أولا ، حينما تكون النمسا منفردة لا يعضدها أحد ، وتترك ألمانيا وشأنها الآن الى أن تتم تعبئة قوة الجيش الروسى بأكملها . غير أن الفرنساويين رغبة منهم فى تخفيف الضغط الألمانى عن أنفسهم ، ألحوا على الروس أن يقوموا فى نفس الوقت بهجوم على ألمانيا ، وأرضوا الروس لأن يقوموا بتعرض اضافى ليسوا على استعداد له لا من حيث عدد الجنود المطلوبة ولا من حيث تنظيمها . ففى الجبهة الجنوبية الغربية كان عليهم أن يرسلوا زوجين من الجيوش كل زوج منهما يحتوى على جيشين تتلاقى كلها على القوات النمساوية فى غاليسيا . وفى الجبهة الشمالية — الغربية كان عليهم أن يرسلوا جيشين ليلتقيا معا ويطبقا على القوات الألمانية فى بروسيا الشرقية . فالروسيا التى كان بطؤها وسخافة تنظيمها اللذان هما مضرب الأمثال يقضيان عليها بانتهاج استراتيجية قائمة على الحذر والحيطة ، كانت على وشك العدول عن تقاليدها والاندفاع فى اقتراب مباشر مزدوج . ولما نشبت الحرب أسرع الغراندوق "نيقولاس" ، القائد العام الروسى ، بغزو بروسيا الشرقية تخفيفا للضغط عن حلفائه الفرنسيين . وفى ١٧ أغسطس اجتاز جيش "رننكامف" (المؤلف من ست فرق ونصف فرقة وخمس فرق من الفرسان) الحدود الشرقية لبروسيا الشرقية . وفى يومى ١٩ و ٢٠ أغسطس التقى بالقسم الأعظم من الجيش الثامن الألمانى (سبع فرق وفرقة من الفرسان) تحت قيادة "پرويتس" فى "جومبينن" وصده الى الوراء . وفى ٢١ أغسطس سمع "پرويتس" أن جيش "سمسونوف" (١٠ فرق و ٣ فرق من الفرسان) قد عبر الحدود الجنوبية لبروسيا الشرقية على مؤخرته التى كان يحرسها جند لا يزيد على ثلاث فرق . فوقع فى ارتباك جعله يتكلم فى ذلك الحين عن التقهقر الى ماوراء نهر "الفستولا" وتسبب عن ذلك أن استبدله "مولتكه" بقائد متقاعد هو الجنرال "هندنبورج" ومعه "لودندورف" كرئيس لهيئة أركان الحرب .

فقام "لودندورف" بالبناء والتوسع فى خطة كان وضعها الكلونيل "هوفمان" من أركان حرب الجيش الثامن وبدأها بالتحركات اللازمة . وحشد نحو ست فرق أمام جناح "سمسونوف" الأيسر . ولما كانت هذه القوة أقل من قوة الروسيين فما كان ممكنا أن تكون حاسمة . غير أن "لودندورف" لما رأى أن "رننكامف" مازال قريبا من "جومبينن" جازف مجازفة حسب حسابها وسحب بقية الجنود الألمانية الموجودة فى تلك الجبهة ولم يبق بها سوى ستار من الفرسان ،

ودفع أولئك الجنود بسرعة لتقابل جناح "سمسونوف" الأيمن . وساعد هذه الحركة الجريئة انعدام المواصلات بين القائدين الروسيين ، والسهولة التى كان الألمان يفكون بها ألغاز الاصطلاحات الروسية اللاسلكية فى أوامرهم ، وفهمها . وكانت النتيجة أن سحقت أجنحة "سمسونوف" تحت الضربات التى انصبت عليها من جهات مختلفة ، وأحيط قلبه (أى منتصف جيشه) وأبيد جيشه فعلا . واذا كانت هذه الفرصة عرضت من تلقاء نفسها ولم يسع أحد لايجادها فان هذه الحملة القصيرة الأجل ، وهى حملة "تاننبرج" يجب أن تعتبر مثالا من صورة الاقتراب غير المباشر المعروف باسم «الخطوط الداخلية» ، بالغا حد الكمال . وبعد ذلك جاء للقائد الألمانى فيلقان جديدان من الجبهة الفرنساوية فاتجه نحو "رننكامف" الذى كان بطيئا فى حركته . وكان عدم نشاطه يرجع بعضه الى الخسائر التى تكبدها فى "جومبينن" وما أعقبها من قلة المعلومات . فطرده من بروسيا الشرقية . وقد خسرت الروسيا ربع مليون من الجنود فى هذه المعارك . ومقدارا كبيرا من المواد الحربية التى لا تستغنى عنها . غير أن غزو بروسيا الشرقية كان له أثر فى مساعدة الفرنسيين على «الرجوع الى "المارن"» بسبب ارسال فيلقين من الغرب .

ولكن تأثير "تاننبرج" نقص بسبب ماحصل فى جبهة "غاليسيا" اذ شالت فيها كفة دول الوسط . ثم ان الحركات التعرضية التى قام بها الجيشان النمساويان الأول والرابع فى "بولندا" صادفت تقدما فى بادئ الأمر ولكن ذلك التقدم زال أثره عند ما اندفع الجيشان الروسيان الثالث والثامن هاجمين على الجيشين النمساويين الثانى والثالث اللذين كانا يحرسان الجناح النمساوى الأيمن وهما أضعف من الجيشين الروسيين . فهذين الجيشين صادفا هزيمة شديدة (فى ٢٦ — ٣٠ أغسطس) ورجعا مطرودين من خلال "لمبرج" . وعلى ذلك صار زحف الجناح الأيسر الروسى مهددا لمؤخرة الجناح الأيسر النمساوى المنتصر . وقد حاول "كونراد" أيضا أن يدور قسما من ميسرته ويأتى به مقابل الجناح الروسى . ولكن هذه الضربة اتقيت . وعلى أثر ذلك فاجأه الجناح الأيمن الروسى بزحفه المتجدد فى حين كانت قواته فقدت نظامها الى أن اضطر لأن يخلص نفسه فى ١١ سبتمبر بتقهقر عام ورجع متقهقرا حتى "كراكاو" بوجه التقريب فى آخر سبتمبر . والمأزق الذى تواجدت فيه النمسا اضطر الألمان لأن يمدوها . فشكلوا جيشا جديدا هو الجيش التاسع من سواد الجنود الموجودة ببروسيا الشرقية . وهذا الجيش تحول متجها جنوبا نحو الركن الجنوبى الغربى من "بولندا" ، ومن هناك زحف على "وارسو" (فرسوفيا) بالاشتراك مع النمساويين الذين جددوا حركاتهم التعرضية . على أن الروسيين كانوا اذ ذاك قد أوشكوا أن يبلغوا أقصى درجات قوة تعبئتهم . ثم أعادوا ادماج قواتهم الى مجموعات وقاموا بهجوم مضاد فصدوا الزحف وأرجعوه وأعقبوا ذلك بمجهود قوى وجهوه الى غزو "سليسيا" .

فشكل "الغرندوق نيقولاس" مجفلا لجبا مؤلفا من سبعة جيوش — ثلاثة منها فى المقدمة واثنان لوقاية كل جناح من الجناحين . وكان جيش آخر، هو الجيش العاشر، قد غزا الركن الشرقى من بروسيا الشرقية واشتبك فى القتال مع القوات الألمانية الضعيفة التى كانت هناك . فلمقابلة هذا الخطر وضعت الجبهة الألمانية الشرقية تحت ادارة الهيئة المكونة من "هندنبورج" — "لودندورف" — "هوفمان" التى ابتكرت ضربة — مقابلة أخرى تشف عن الدراية والمقدرة وكانت قاعدتها مجموعة السكك الحديدية الجانبية الموجودة داخل الحدود الألمانية . وتقهقر الجيش التاسع أمام زحف الروسيين وأخذ يعرقل سيرهم ويؤخره باتلاف كل ما كان موجودا من وسائل المواصلات الحقيرة فى بولندا اتلافا منظما . ولما وصل الى حدود "سليسيا" دون أن يقع عليه ضغط تحول فى بادئ الأمر نحو الشمال الى ساحة "پوزن" — "ثورن" . ثم اندفع الى الجنوب الشرقى فى ١١ نوفمبر، صاعدا نهر "الفستولا" على شاطئه الغربى متجها نحو نقطة اتصال الجيشين الروسيين المكلفين بحراسة جناحهم الأيمن . فكان بمثابة السفين الذى يطرق بمطرقة ودخل بينهما ففصل أحدهما عن الآخر وأرغم الأول على التقهقر الى "وارسو" (فرسوفيا). وفعل بالثانى مثل ماحصل فى "تانبرج" بوجه التقريب اذ كاد يحصره تماما فى "لودز" . وعندها رجع الجيش الخامس من المقدمة ليخلصه . وكانت النتيجة ان أصاب قسما من القوة الألمانية المحيطة ما كان مقدرا فى الخطة الألمانية أن يصيب الروس ولكنه تمكن من شق طريق له وعاد الى القوة الرئيسية . فاذا كان الألمان قد خاب أملهم فى الحصول على فوز تكتيكى حاسم . فان هذه المناورة كانت مثالا فنيا جديرا بالدراسة . اذ يبين كيف ان قوة صغيرة نسبيا تستطيع أن تشل زحف جيش يفوقها عددا أضعافا مضاعفة ، باستخدام خفة الحركة لاقتراب غير مباشر الى نقطة حيوية . فان الآلة « الكابسة — البخارية » الروسية قد أصابها العطب ، ولم تعد لتهديد الأراضى الألمانية مرة أخرى .

ففى ظرف أسبوع واحد وصلت أربعة فيالق ألمانية جديدة من الجبهة الغربية حيث كان الهجوم على "ايپر" قد انتهى بالفشل . ومع أنها وصلت بعد فوات الفرصة التى سنحت للحصول على نصر حاسم فان "لودندورف" استطاع أن يستخدمها فى الضغط على الروسيين وارجاعهم الى خط نهر "بزورا — رافكا" أمام "وارسو" . وهناك استقرت حالة الخنادق فى الشرق كما كانت فى الغرب . ولكنها كانت أقل ثباتا مما فى الغرب وكان الروس قد استنزفوا كل مالديهم من الذخيرة لدرجة عجزت مصانعهم السقيمة عن الاستعاضة عنها بغيرها .

وقصة ماوقع فى الجبهة الشرقية على وجه التحقيق تتلخص فيما نشأ من النزاع بين ارادتى "لودندورف" الذى أراد الوصول الى الحسم باستراتيجية كانت عبارة عن اقتراب غير مباشر من الوجهة الجغرافية على أقل تقدير، "وفالكنهاين" الذى كان يرى أن فى امكانه أن يقتصد فى بذل قوته من جهة . وأن يشوه قوة روسيا التعرضية ويعجزها من جهة أخرى باستراتيجية

(٩)

تنطوى على اقتراب مباشر . ولما كان "فالكنهاين" فى منصب أسمى من "لودندورف" فانه فاز بتنفيذ ارادته ولكن استراتيجيته لم تنجح فى احراز أى غرض من غرضيه . وقد رأى "لودندورف" أن زحف الروس فى فصل الخريف نحو "سليسيا" و"كراكاو" قد أوقع جيشهم فى مأزق زاوية "بولندا" الخارجة بدرجة كبيرة . حتى انهم فى الركن الجنوبى — الغربى أطالوا برؤسهم من هذه الشبكة الى داخل الأراضى النمساوية . وفى ذلك الحين نزلت بهم ضربة "لودندورف" فى "لودز" فأصابت جيشهم بالشلل . وفى أثناء المدة التى استعادوا فيها احساسهم وقوتهم كانت أطراف الشبكة المحيطة بهم قد أعيد حبكها وتقويتها . فمن يناير الى أبريل بقى الجسم الروسى يتلوى بشدة وعنف على سفح جبال "الكربات" على غير طائل . بل ان مجهوداته لم تزده الا تغلغلا فى حبائل الشبكة . وأراد "هندنبورج" و"لودندورف" و"هوفمان" أن ينتهزوا هذه الفرصة للقيام بحركة اقتراب غير مباشر واسعة النطاق بالالتفاف حول الجناح الشمالى قريبا من بحر "البلطيك" . من خلال "كوفنو" و"فلنا" نحو مؤخرة الروسيين بالتعارض على مواصلاتهم الحديدية القليلة مع زاوية بولندا الخارجة .

غير أن "فالكنهاين" امتنع لسببين : أولا لجرأة هذه الحركة ، وثانيا بسبب ماتتطلبه من بذل جنوده الاحتياطية مع أنه اضطر الى بذل أكثر من ذلك فى طريقته التى اتبعها . فانه لما امتنع ، بعد الالحاح ، عن محاولة القيام بحركة جديدة يحطم بها حاجز الخنادق فى الغرب ، ولما كان مضطرا لأن يمد حلفاءه النمساويين بجنود احتياطية فانه صمم على استخدام هذه الجنود بدرجة محدودة استراتيجيا وان كانت غير محدودة تكتيكيا فى محاولة تعجيز الروسيا حتى يتسنى له أن يرجع لتجديد حركاته التعرضية فى الغرب دون أن يزعجه شىء .

والخطة التى وضعت للشرق التى اقترحها "كونراد" واتبعها "فالكنهاين" كانت عبارة عن اختراق القلب الروسى فى قطاع "دوناجك" بين جبال "الكربات" ونهر "الفستولا" . وفى ٢ مايو نزلت الضربة . فكانت المفاجأة تامة ، وكان استغلالها سريعا . فلم يحل يوم ١٤ مايو حتى كان كل الخط القائم على طول جبال الكربات قد انطوى وارتد الى الوراء ٨٠ ميلا الى نهر "السان" . وهنا نشاهد مثالا واضحا منيرا للأذهان عن الفرق بين مايسمى عادة بالمفاجأة وبين الاقتراب غير المباشر . فان المفاجأة قد حصلت من حيث الزمان ، والمكان ، والقوة . ولكن الروسيين لم يصبهم أكثر من أنهم تدحرجوا الى الوراء كما تتدحرج كرة من الثلج . واذا كانوا خسروا خسائر فادحة فانهم ارتدوا نحو جنودهم الاحتياطية ومؤنهم وسككهم الحديدية وبذلك وطدوا كرة الثلج وضافوا اليها زيادات حلت محل ما فقد منها . وفضلا عن ذلك فان ضغط هذا الاقتراب المباشر وان كانت شدته قد بلغت درجة الخطر على القيادة الروسية الا أنها لم تكن صدمة مزحزحة .

وهناك ادرك " فالكنهاين " أنه قد ورط نفسه الى حد التوغل فى " غاليسيا " لدرجة لا يصح معها الانسحاب ، وأن تعرضه الجزئى لم يوصله الى مكان يأمن الوقوف فيه ، وأن لا أمل له فى تنفيذ غرضه الذى يرمى اليه وهو نقل الجنود الى فرنسا الا بعد أن يأتى بجنود من فرنسا أكثر مما لديه . ولكنه بالرغم من ذلك اختار مرة أخرى اقترابا يكاد يكون مباشرا . ذلك أنه غير اتجاه الحركات التعرضية ونقله من اتجاه شرق الى اتجاه شمالى — شرق ، وأمر " لودندورف " — الذى كان ينتظر على مضض فى بروسيا الشرقية — بأن يساهم فى هذه الحركات بأن يضرب نحو الجنوب — الشرق . فاعترض " لودندورف " على ذلك بقوله ان هذه الخطة وان كانت تنطوى على الاطباق على العدو الا أنها هجوم جبهى بدرجة متجاوزة الحد . فان الجناحين قد يضغطان على الروس ولكنهما لا يستطيعان أكثر من ذلك . ثم ألح مرة أخرى فى تنفيذ مناورته عن طريق " فلنا " ولكن " فالكنهاين " رفضها مرة أخرى . وقد أثبتت النتيجة صدق نظر " لودندورف " . فان شق مقص " فالكنهاين " حين انطباقهما لم يحدثا أكثر من دفع الروس الى الوراء وخروجهم من المسافة الواقعة بينهما . وفى آخر سبتمبر كانوا قد ارتدوا واتخذوا خطا طويلا مستقيما بين " ريجا " على بحر "البلطيك" " وشيرنوفتس " على حدود رومانيا . ثم انهم وان كانوا قد صاروا لا يهددون ألمانيا مباشرة بعد ذلك مطلقا الا أنهم كلفوها مشقة ومجهودا لا يعوض اذ اضطروها الى ابقاء قوات ألمانية كبيرة أمامهم كما أنهم أبطلوا عمل النمسا أدبيا وماديا .

ولما فرغ " فالكنهاين " من العمليات الواسعة النطاق وتجاوز عنها ، صرح أخيرا " للودندورف " تصريحا فى شىء من التردد لأن يحاول القيام بمناورته عن طريق " فلنا " ، بعد أن فات أوانها ، بما لديه من الوسائل الضعيفة . ثم جاء ما وقع فعلا من أن هذه الهجمة الخفيفة المنفردة قد قطعت السكة الحديدية الموصلة من " فلنا " الى " دفينسك " وكادت أن تصل الى سكة " منسك " الحديدية التى هى الخط المركزى لمواصلات الروسيين بالرغم من أن الروسيين كانت لديهم حرية حشد كل جنودهم الاحتياطية لمقاومتها . جاء ذلك دليلا ضمنيا على ما كان ممكنا حصوله لو أنها حصلت من قبل ، بقوة كبيرة حينما كان الجسم الروسى يتخبط فى الشرك الذى وقع فيه فى " بولندا " .

ثم ان دول الوسط بعد أن انتهت حركاتهم التعرضية فى الشرق ، وثبت دفاعهم فى الغرب ثباتا لا يتزعزع ، انتهزوا فرصة فصل الخريف لاتمام حملتهم فى بلاد " الصرب " . وهى الحملة التى كانت اقترابا غير مباشر له غاية محدودة ، بالنسبة للحرب بأجمعها ، ولكنها فى دائرتها الخاصة كانت ذات غاية حاسمة . ثم ان مجراها أيضا وان كان الموقف مساعدا له من الوجهتين الجغرافية والسياسية ، فانه يلقى شعاعا من النور على هذه الطريقة . أما الخطة فكانت مؤسسة على دخول " بلغارية " الحرب فى جانب دول الوسط . فان الغزو النمساوى الألمانى كان

متوقفا بما لقى من المقاومة ، عند ما تحرك البلغاريون غربا الى داخل بلاد الصرب . وحتى حينذاك بقيت مقاومة الصربيين ثابتة ، اذ كانت طبيعة البلاد الجبلية تعاونها الى أن دار الجناح الأيسر البلغارى ودخل القسم الجنوبى من بلاد الصرب بالتعارض على مؤخرتهم فاصلا بينهم وبين الامدادات الفرنسية — البريطانية التى كانت آتية من " سلانيك " . وعلى ذلك كان التدهور سريعا ولم يبق من الصربيين الا بقيـة ضئيلة نجت بنفسها أثنـاء التقهقر نحو الغرب فى منتصف فصل الشتاء مجتازة ألبانيا حتى وصلت ساحل الادرياتيك . فهذا الحشد السريع ضد الشريك الأصغر خلص النمسا من الخطر من هذه الناحية ، وأتاح لألمـانيا حرية المواصلات الى أوربا الوسطى والسيطرة عليها .

أما عمليات سنة ١٩١٦ وسنة ١٩١٧ على الجبهة الروسية فانها لا تستدعى الا القليل من الشرح والتعليق اذ كانت فى جوهرها دفاعيـة فى الجانب النمساوى — الألمـانى ، ومباشرة فى الجانب الروسى . أما مغزى العمليات الروسية فهو أنها لا تقتصر على اظهار عقم الاستراتيجية التى تعتمد على مجرد قوة الاندفاع فى اقتراب مباشر ، بل انها تظهر أيضا ارتداد التأثير الأدبى ورد فعله على متبعها . فانه حينما جاءت الثورة نذيرا للانهيار التام الذى سيصيب مجهود روسيا الحربى ، فى سنة ١٩١٧ ، كانت القوات الروسية احسن تسليحا وأكمل عُددا منها فى أى وقت مضى . غير أن الخسائر الجسيمة التى لم تر لهـا فائدة كانت قد نزعت ارادة القتال من قلوب أولئك الجنود الذين هم أكثر الجنود الأوربية صبرا وتضحية . وقد شوهد مثل ذلك التأثير أثناء التمرد الذى حصل فى الجيش الفرنسى على أثر الحركات التعرضية التى وقعت فى ربيع سنة ١٩١٧ فان معظم الثوران حصل حينما أمرت الجنود التى ملت المجازر بالعودة الى الخنادق . والعملية الروسية الوحيدة التى كان فيهـا شىء من الاقتراب غير المباشر فى مبدئها هى العملية التى قام بها "بروسيلوف" فى تعرضه بالقرب من " لوك " فى يونيه سنة ١٩١٥ وكانت كذلك لأن تلك الحركات التعرضية لم تكن بنية جدية . فانها ابتكرت لمجرد تشتيت أفكار العدو وانتهت قبل الأوان تلبية لنداء ايطاليا . فلم يسبقها استعداد أو حشد جنود فكان الزحف الذى حصل عرضا وعلى غير انتظار قـد أدى الى انهيار الدفاع الذى كان مستنيما لدرجة أن وقع فى الأسر ٢٠٠,٠٠٠ جندى فى ظرف ثلاثة أيام . ومن النادر أن يكون لمثل هذه الصدمة الفجائية من النواحى فى نتائجها الاستراتيجية مثل ما كان لهـا . فانها أوقفت هجوم النمسا على ايطاليا ، وأرغمت " فالكنهاين " على سحب جنود من الجبهة الغربية . وبذا ألجأته على أن يتنحى عن حملته التى قصد بها الانهاك حول " فردون " . ثم حفزت رومانيا على دخول الحرب ضد دول الوسط . وكان من جرائها سـقوط " فالكنهاين " واستبداله " بهندنبـورج " و " لودندورف " (أما " هوفمان " فانه بقى فى الشرق وكان غيابه خسارة على رفيقيه) . ولو أن دخول رومانيا الحرب كان الحجة التى اتخـذت لاستبداله الا أن السبب الحقيق هو أن استراتيجيته المبـاشرة

فى سنة ١٩١٥ كانت ضيقة من حيث الغرض والاتجاه فكنت الروس من « العودة » التى أكملت إفساد استراتيجيته سنة ١٩١٦ « أكملتها » فقط لأن ظل الفشل كان قد وقع على التصميم الذى وضع " لفردون " . وهو تصميم قام على المبادئ التى تولدت فى القرن التاسع عشر ، فكان أول غرض له هو أقوى جيش لدى الأعداء المتحالفين ، وأقوى نقطة من نقط موقع هذا الجيش .

غير أن حركات " بروسيلوف" التعرضية غير المباشرة وما كان لها من التأثير الجيد لم يستديما طويلا . فانها أدت بالقيادة الروسية ، بعد فوات الأوان ، أن تلقى بكل ما لديها من القوى فى ذلك الاتجاه . ثم انها لم تكن سوى ما يقتضيه القانون الطبيعى للحرب من أن استمرار المجهود على طول خط المقاومة التى تزداد صلابة لا بد له من استخدام كل الجنود الاحتياطية الروسية دون حصول فائدة تعادل ذلك البذل . أما ما أصاب " بروسيلوف " من الخسائر فى آخر الأمر وعددها ١,٠٠٠,٠٠٠ فهو وان كان من الفداحة بمكان الا أنه كان فى الامكان الاستعاضة عنه بجنود تحل محل تلك الخسائر . ولكنها لما كشفت عن الافلاس العقلى وأظهرته أمام من تبقى من الجنود تسبب عنها افلاس قوة روسيا العسكرية من الوجهة الأدبية .

فاصرار روسيا على تركيز كل أفكارها على هذا المجهود مكن "هندنبورج" و"لودندورف" من القيام « بتغيير سريع آخر » هو اقتراب غير مباشر كالذى حصل ضد بلاد الصرب فى سنة ١٩١٥ وقد صار اقترابا استراتيجيا غير مباشر ، على الوجه الأصح ، و يرجع بعض السبب فى ذلك الى حكم الظروف . وقد كانت رومانيا الهدف المقصود . وكان لديها فى بادئ الأمر ٢٣ فرقة مجهزة بأسلحة وعدد بدرجة متوسطة ، يقابلها سبع فرق . وكانت تأمل أن ضغط " بروسيلوف " ، والبريطانيين الموجودين على نهر " السوم " ، وقوات الحلفاء التى كانت اذ ذاك فى سلانيك تحول دون تقوية هذه الفرق السبع . وكل ما يمكن أن يقال هو أن كل هذه القوات كان ضغطها مباشرا فلم يحل دون سحب جنود كافية لسحق رومانيا .

ولما كانت الأراضى الرومانية محصورة بين مقاطعة " ترانسلفانيا " و " بلغاريا " فقد كانت لها موانع طبيعية قوية على كل جنب من جنبيها هى جبال "الكربات" ونهر "الدنوب" ولكن موقعها كان يلائم استراتيجية الاقتراب غير المباشر . وعلاوة على ذلك فان مقاطعة " دوبروجا " التى هى «فناؤها الخلفى» وهى شقة مستطيلة على الجانب الآخر من نهر الدنوب بالقرب من البحر الأسود ، كانت طعما يستطيع خصم ماهر أن ينشب فيها صنارته .

ثم ان رغبتها وتصميمها على انتهاج خطة التعرض نحو الغرب داخل " ترانسلفانيا " جعلا العمل المضاد الذى قام به خصمها ، غير مباشر بدرجة أكثر مما كان فى نيته من الأصل ، وأكثر دهاء .

فابتدأ الزحف الرومانى فى ٢٧ أغسطس سنة ١٩١٦ ، فى ثلاثة قولات رئيسية كل منها مؤلف من نحو أربع فرق تحركت فى اتجاه شمالى — غربى مجتازة ممرات جبال " الكربات " مقتربة نحو سهل بلاد المجر اقترابا مباشرا . ثم تركت ثلاث فرق لحراسة نهر الدنوب ، وثلاث أخرى فى " دوبروجا " حيث وعد الروس بامدادها . غير أن زحف القوات الرومانيـة الى داخل " ترانسلفانيا " ، الذى كان بطيئا وملازما للحذر قد أعاقه العـدو بتدميره كل الجسور (الكبارى) لا بمقاومته . فلم يهدد الفرق التساوية الخمس الضعيفة التى كانت تستر الحدود ، الى أن جاءها مدد مؤلف من خمس فرق ألمـانية وفرقتين نمساويتين . ولتنفيذ النصف الآخر من الخطة التى كان " فالكنهاين " قد وضعها قبل سقوطه وضعت أربع فرق بلغارية ومعها تقوية ألمـانية ، وقطار نمساوى من معدات انشاء الجسور ، تحت تصرف " مكنزن " على ذمة غزو " دوبروجا " .

وبينما كانت القولات الرومانية تتحرك ببطء نحو الغرب داخل " ترانسلفانيا " ، اقتحم " مكنزن " رأس جسر " تورتوكايا " فى ٥ سبتمبر وأباد الثلاث الفرق الرومانية التى كانت حرسا على جبهة نهر " الدنوب " . وبعد أن أمن جناحه الواقع الى جهة الدنوب تحرك شرقا متوغلا فى " دوبروجا " ، وان كان مبتعدا عن " بخارست " — التى هى خط الانتظـار الطبيعى . فجاءت هجمة أدبية تدل على الدهاء ، لأن تأثيرها الاسـتراتيجى (الأوتوماتيكى) ، الذى يحصل من تلقاء نفسه ، هو اجتذاب الجنود الاحتياطية الرومانيـة التى جُعلت لامداد الحركات التعرضية فى " ترانسلفانيا " التى فقدت ما كان لها من قوة الحفز .

وهنا قام " فالكنهاين " ، الذى تولى القيادة التنفيذية ، بحركات تعرضية مضادة ربمـا كانت متجاوزة الحد فى درجة اهتمامه بها وفى كونها مباشرة . لأنه وان كان قد أبدى مهـارة فى حشد جنوده ضد القولين ، الجنوبى والوسطى ، واحدا بعد الآخر ، مسـتخدما لايقاف الآخرين من جنود العدو عددا من الجنود أقل من عددهم وان لم يكن أقل ما يلزم . اذ كانوا يكادون لا يحتاجون الى من يوقفهم . فان النتيجة كانت صد الرومانيين وارجاعهم ولكن لم يحل بينهم وبين الجبال . وهذا الحادث السيئ الطالع جعل كل الخطة الألمـانية فى خطر . فان الرومانيين الذين كانت كل الممرات مازالت فى أيديهم استبسلوا وصدوا كل محاولة للنفوذ من الممرات وراءهم بالملاصقة . وقد فشل فى محاولته الأولى للنفوذ من مكان أبعد الى جهـة الغرب . ولكنه عاد فجدد مجهوده مع النجاح ونفذ من الجبال قبل نزول ثلوج الشتاء . ثم لمـا دار نحو الغرب كان قد دخل رومانيا من بابها الأمامى وترتب على ذلك أن صار اقترابه مباشرا . فاضطر لأن يجتاز سلسلة من خطوط الأنهر . ولكن لحسن حظه أنه لمـا أوقف على طول نهر " الألط " تدخل " مكنزن " لأن " مكنزن " كان قد حول معظم قوته من "دوبروجا" مارا " بتورتوكايا " الى " سستوفو " حيث عبر نهر " الدنوب " قهرا فى ٢٣ نوفـمبر .

ومما هو موضوع جدل ومناقشة هو ما اذا كان تركه موقعه القوى على مؤخرة رومانيا قصد تجمع الجيش الرئيسى ، بعد زحفه ، فى اتجاه " بخارست " هو أفضل استراتيجية مثمرة . نعم انها مكنت " فالكنهاين " من عبور نهر " الألط " ، ولكنها مكنت الرومانيين أيضا من استخدام موقعهم « القريب » الوسطى للقيام بانزال ضربة مضادة خطرة على جناح " مكنزن " كادت تحيط به من جميع الجهات . ولكن بمجرد ما زال الخطر فان الضغط المشترك من كل من " فالكنهاين " و " مكنزن " دفع الجيش الرومانى الى الوراء مجتازا " بخارست " ومنها انسحب الى خط " سيرث " — والبحر الأسود ، فاستولت القيادة الألمانية على القسم الأعظم من رومانيا بما فيها من غلال وزيوت . ولكنها لم تقطع على الجيش الرومانى رجعته أو تبيده فكان ذلك باعثا على توطيد قوته المعنوية والعقلية فى مقاومته للمرحلة الأخيرة من زحف العدو بدلا من انقاصهما . وفى فصل الصيف التالى قاوم مقاومة مجيدة أحبطت مساعى الألمان لطرده الى ماوراء نهر " البروت " ليكمل لهم احتلال رومانيا . فلم تخضع رومانيا الا فى ديسمبر سنة ١٩١٧ حينما وقعت روسيا البلشفية على شروط الهدنة مع ألمانيا واقتفت رومانيا أثرها بعد أن أصبحت منفصلة

الباب الثالث عشر

المسرح الجنوبي الشرقي — أى مسرح البحر الأبيض المتوسط

المسرح الايطالى — فى سنة ١٩١٧ كانت ايطاليا هى مكان المنظر التمثيلى ، والغرض الذى قصدته القيادة الألمانية ، لتمثل لنفسها منه مستودعا أومخزنا لحاجاتها فى فصل الحريف . وهنا أيضا كان شكل الحدود الطبيعى مما يجعلها مطمحا لاقتراب غير مباشر من الوجهة الجغرافية ولكنها لم تمكن العدو من ذلك . أما هذا العدو فلم يبد أى ميل لمحاولة القيام باقتراب غير مباشر من الوجهة النفسية . فان "فينيزيا" التى هى اقليم الحدود الايطالية عبارة عن زاوية خارجة متجهة نحو بلاد النمسا . ويقع على جانبها الشمالى كل من افليمى " التيرول " و " الترنتينو " النمساويين . وعلى جانبها الجنوبى بحر الادرياتيك . وتتاخم الادرياتيك شقة من الأرض على جبهة نهر "الايزونزو" واطية نسبيا . على أن الحدود فى تلك البقعة تمشى مع جبال الألب " الجولیانية " و"الكارنيكية" ملتفة لفة واسعة ثم الشمال الغربى ويستمر قوسها فى سيره نحو الجنوب الغربى حتى يصل الى بحيرة "جاردا" . ثم ان اتساع كتلة جبال الألب اتساعا عظيما من جهة الشمال وعدم وجود أغراض حيوية فى تلك الجهة لم يشجعا ايطاليا على القيام بحركات تعرضية فى ذلك الاتجاه . ولهذه الأسباب كان لا منفذ لحركاتها التعرضية الا بزحف مباشر الى جهة الشرق نحو بلاد النمسا . فكانت بطبيعة الحال عرضة لتهديد كبير دائم يأتيها من النمسا يتضمن هبوطها من مقاطعة "الترنتينو" على مؤخرة ايطاليا . ولكن لما لم يكن فى وسعها أن تختار طريقا آخر اتخذت هذا الطريق . فثابرت على الاقتراب المباشر لمدة سنتين ونصف سنة وحينذاك كانت "المعركة الحادية عشر" من معارك "الايزونزو" قد انتهت على غير طائل . فان الجيوش الايطالية لم تكد تزحف الى أبعد من النقطة التى بدأ منها الزحف حتى بلغت خسائرها ١,١٠٠,٠٠٠ جندى فى حين كانت خسائر النمساويين تبلغ نحو ٦٥٠,٠٠٠ وفى كل تلك الأثناء كانت النمسا انتهجت خطة التعرض مرة واحدة . وتلك كانت فى سنة ١٩١٦ حينما أراد "كونراد" أن يحصل على معاونة "فالكنهاين" فى قهر ايطاليا والتغلب عليها بهجوم من "الترنتينو" نحو الجنوب يوجه الى مؤخرة الجيوش الايطالية التى كانت اذ ذاك تقاتل على نهر "الايزونزو" غير أن "فالكنهاين" لعدم وثوقه من خطة الضربات "الحاسمة" ولاصراره على التمادى فى عملية الانهاك فى "فردون" رفض ذلك حتى انه أبى أن يعير "كونراد" الحد الأدنى من مطالبه وهو تسع فرق ألمانية لتحل محل الفرق النمساوية الموجودة بالجبهة الشرقية . ولما لم ينل "كونراد" هذه المساعدة صمم على أن يقوم بهذه المحاولة وحده فأخذ بضعا من خيرة فرقه من الشرق وعرض تلك الجبهة لزحف "بروسيلوف" الذى حصل على أثر ذلك ، دون أن تتواجد لديه القوة الكافية لتنفيذ خطته الايطالية . ومع كل فقد كاد هذا الهجوم أن يكلل بالفوز .

واذا كان لا يمكن القول بأن هذا الهجوم كان على غير خط الانتظار الطبيعى، الا أنه كان على شيء من عدم التوقع لأن القيادة الايطالية ما كانت تعتقد أن "كونراد" عنده من القوة والتسهيلات ما يمكنه من القيام بهجوم واسع النطاق. وفى الحق كان هجوما واسع النطاق ولكنه ليس بالاتساع الكافى. فلما اندفع الهجوم أحرز فوزا سريعا فى أيامه الأولى. ومع أن "كادورنا" تمكن من سحب جنوده الاحتياطية، فى الوقت الملائم، من جبهة "الايزونزو" علاوة على كونه قد استعد لنقل مهماته ولوازمه، ومدفعيته الثقيلة من تلك الجهة — فان المسألة كانت مسألة مسابقة تساوى فيها الطرفان. أما الهجوم النمساوى فكان على وشك النفوذ الى السهل ولكنه نظرا لعدم وجود جنود احتياطية ضاعت قوته الطاردة. وفى ذلك الحين وقع زحف "بروسيلوف" على الجبهة الشرقية فأوقف هذا الهجوم. ولما عنت "للودندورف" بعد ذلك بسبعة عشر شهرا فكرة انزال ضربة مشتركة بايطاليا نظرا لما بلغته حالة النمسا من الشدة كان الأمل فى النجاح أقل مما كان فى ذلك الهجوم. لأنه لم يمكنه الاستغناء الا عن احتياطيه العام الضئيل البالغ قدره ست فرق، وكان حليفه فى أشد حالات التعب والاعياء أدبيا وماديا. ونظرا لقلة الوسائل الموجودة كانت الخطة أضيق من السابقة وأكثرمنها اقترابا مباشرا — وهى عبارة عن هجوم على الركن الشمالى — الشرقى من جبهة "الايزونزو" عند منعرجها نحو كتلة جبال الألب. على أن اختيار القطاع الموجه اليه الهجوم وقع بناء على مبدأ كان حديثا فى هذه الجبهة — اذ كان على خط أقل مقاومة تكتيكية. وكانت الخطة فى الأصل ترمى الى النفوذ من نقطة "كاباريتو" ثم ازاحة جبهة "الايزونزو" وطيها لا شيء غير ذلك. ولكنها اتسعت أخيرا فى مراميها دون أن تزداد الوسائل. فان مثل "لودندورف" فى "كاباريتو"، كمثل البريطانيين فى "كمبراى" فى ذلك الخريف، كان وضع مثال لذلك الخطأ الاستراتيجى الجسيم وهو عدم "قطع القماش على قدر الثوب". لأنه كان على نقيض "فالكنهاين" الى حد التطرف. فهذا كان يقطع قماشه دائما أقل مما يحتاجه ثوبه، مقدرا مقاس الثوب دون الحقيقة. وبعد أن يدرك خطأه يطلب زيادة من القماش ليكبر بها الثوب — فيرقعه رقعا لا تفى بالغرض.

ففى يوم ٢٤ أكتوبر اندفع الهجوم الذى كان يشف عن مهارة فى اعداده واخفائه ونفذ متوغلا بين جيش "الايزونزو" الايطاليين. وبعد أسبوع من ذلك التاريخ وصل الى نهر "الطليامنتو"، ولكن بعد أن تمكن الايطاليون من اخراج أنفسهم من هذا المأزق وخلصوا قواتهم التى انفصل بعضها عن بعض؛ ولو بفقد قسم كبير منها. أصبح استمرار الزحف اقترابا مباشرا صرفا، نحو الغرب ضاغطا الايطاليين الى الوراء حتى وصلوا الى نهر "البياقة" وهو حاجز قوى يلجأون وراءه. وبعد فوات الأوان فكر "لودندورف" فى تحويل جنود احتياطية الى "الترنتينو" ولكن قلة المواصلات الحديدية حالت دون ذلك. وقد حاول جيش "الترنتينو"

عمل ما فى امكانه بوسائله الضئيلة ولكن على غير طائل . فان حركته قد زالت عنها صبغة الهجوم الحقيق الموجه الى المؤخرة . لأن كل الجبهة الايطالية والجنود الاحتياطية قد رجعت الى الوراء حتى كادت تصل الى "الترنتينو" .

فقد زالت المفاجأة الأصلية وصار الهجوم النمساوى — الألمانى الآن عبارة عن اطباق على العدو مباشرة من جهات مختلفة كل ما فيه انه أرجع الايطاليين نحو جنودهم الاحتياطية ، ومؤنهم وأراضيهم ، وامدادات حلفائهم . فكانت له النتيجة السلبية التى لا مفر منها . على أن النجاح الذى أحرزه بهذه الوسائل الضئيلة يجعل التفكير فى أمر عدم اصغاء "فالكنهاين" الى خطة "كونراد" فى أوائل سنة ١٩١٦ ، تلك الخطة التى كان أمل النجاح فيها أكثر ضربا من النقد السخرى .

مسرح البلقان — قبل أن نعود الى النظر فى خطة "فالكنهاين" لسنة ١٩١٨ ، من الضرورى تصفح بيان الأعمال التى قام بها أعداؤه أو حاولوا القيام بها فى بحر الثلاث السنين الماضية خارج حدود الجبهتين الفرنسية والروسية .

فبينما كان كل من مركزى الرياسة الفرنسية والبريطانية فى فرنسا ثابت الاعتقاد واثقا كل الوثوق من قوة الاقتراب المباشر ومقدرته ليس فقط على اختراق حاجز الخنادق والنفوذ منه . بل على احراز نصر حاسم ، كانت بعض الدوائر التى كانت إما بعيدة عن جبهة الخنادق وإما قريبة منها يخالجها شك عظيم فى ذلك منذ شهر أكتوبر سنة ١٩١٤ وأصحاب هذه الفكرة الذين أتاح لهم البعد أن يصوروها أمام أنظارهم ليسوا كلهم من الزعماء السياسيين . فمنهم "غالينى" فى فرنسا ، و"كتشنر" فى انجلترا — وقد كتب فى ٧ يناير سنة ١٩١٥ مخاطبا السير "جون فرنش" يقول : "ان الخطوط الألمانية فى فرنسا يصح اعتبارها بمثابة قاعة لا يستطاع الاستيلاء عليها بالاقتحام وايضا لا يمكن محاصرتها تماما . فالنتيجة هى أنه يصح مقابلة الخطوط بقوة تحيط بها بينما تأخذ العمليات مجراها فى مكان آخر" .

وقال بعضهم خصوصا المستر "تشرشل" ، ان حلف الأعداء يجب النظر اليه جملة ، وان التطور الحديث قد غير فكرة المسافة وفكرة قوة خفة الحركة والتنقل ، لدرجة أن الضربة التى تنزل بمسرح آخر من مسارح الحرب قد تعادل الهجوم "التاريخى" على الجناح الاستراتيجى للعدو . وهنا تصح الاشارة الى أن مثال نابليون ، وهو الذى كثيرا ما اتخذ حجة للثابرة على البقاء فى الجبهة الغربية يظهر منه أنه يؤيد هذه الفكرة الأخيرة . وفوق ذلك فانه من المسلم أن مثل هذه العملية تلائم الاستراتيجية البرية — البحرية التى هى استراتيجية بريطانيا التقليدية . وتمكن بريطانيا من استغلال المزية الحربية المتوفرة فى القوة البحرية التى أهملت حتى ذلك الحين . وفى أكتوبر سنة ١٩١٤ ألح اللورد "فيشر" فى اتباع خطة لانزال جنود على الساحل الألمانى . وفى يناير

سنة ١٩١٥ أشار اللورد كتشنر بخطة أخرى لفصل خط مواصلات تركيا الرئيسى نحو الشرق بانزال جنود فى خليج اسكندرونه وقد أبانت ملاحظات كل من "هندنبورج" و" أنور" بعد الحرب كيف كان ذلك يصيب تركيا بالشلل لو أنه حصل . ولكنه ما كان يحدث تأثيرا أعظم على دول الوسط بجملتها ولا يكون اقترابا غير مباشر .

وقد أشار المستر" لويد جورج" بنقل سواد القوات البريطانية الى البلقان بصفتها طريقا موصلا الى "الباب الخلفى" للعدو . ولكن القيادتان الفرنسية والبريطانية لوثوقهما من الحصول على حسم سريع فى فرنسا عارضتا بشدة اتباع أية استراتيجية أخرى محتجين بصعوبة النقل واستيراد المؤن و بالسهولة التى تلاقيها ألمانيا على رأيهم ، فى تحويل جنودها لمقابلة هذا التهديد. واذا كان فى معارضتهما شيء من الحقيقة فان حماسهما أدى بهما الى الغلو والمبالغة . ثم ان معارضتهما كانت أكثر بعدا عن المناسبة فى تطبيقها على النموذج الخاص الذى رسمه "غاليبى" لحظة البلقان فانه اقترح انزال جنود الى "سلانيك" كنقطة يبدأ منها السير الى استانبول بجيش قوى بدرجة تشجع بلاد اليونان و بلغاريا على الانضمام اليه . و بعد الاستيلاء على استانبول تزحف القوة صاعدة نهر الدنوب الى بلاد النمسا والمجر بالاشتراك مع الرومانيين . وهذه الخطة كانت فى أساسها مشابهة لما حصل فعلا فى أكتوبر سنة ١٩١٨ ففى شهر سبتمبر من تلك السنة نزع الرأى العسكرى الألمانى الى اعتبار أن مثل هذا الحادث لو حصل فانه "يكون حاسما" وفى أول أسبوع من نوفمبر كان التهديد، وهو ما يزال بعيدا ، عاملا هاما فى تعجيل ألمانيا بالتسليم .

ومع ذلك ففى سنة ١٩١٥ كانت أغلبية الرأى العسكرى تعارض كل الاقتراحات المغايرة لفكرة تركيز المجهود على الجبهة الغربية غير أن التشاؤم لم ينقطع ، وفى ذلك الحين نشأ موقف أعاد الى الحياة خطة الشرق القريب وان كانت فى صورة مصغرة .

ففى ٢ يناير سنة ١٩١٥ جاء اللورد" كتشنر" استصراخ من الغراندوق "نيقولاس" يطلب اليه القيام بحركة تخفيفية تحول أفكار الأتراك فيخف ضغطهم على قوات روسيا فى القوقاز . ولكن كتشنر أحس بعدم امكانه ايجاد الجنود اللازمة لذلك فاقترح القيام بمظاهرة بحرية أمام الدردنيل . وزاد "تشرتشل" أن اقترح أنه فى حالة عدم امكان تقديم معاونة عسكرية تستبدل المظاهرة البحرية بمحاولة اجتياز الدردنيل غصبا مراعيا فى ذلك النتائج الاستراتيجية والاقتصادية العظيمة . ولم يلق هذا الشروع معارضة من مستشاريه البحريين ، وان كانوا لم يتحمسوا له . وقام الأميرال الموجود بنفس المكان ، وهو "كاردن" بوضع خطة لذلك وأعدت قوة بحرية تألف معظمها من السفن العتيقة المهجورة ، بمساعدة فرنسا ، و بعد ضرب المدافع التمهيدى دخلت هذه القوة البوغاز فى ١٨ مارس . غير أن الألغام السابحة أغرقت عدة سفن فبطلت المحاولة .

ومما هو موضع جدل ومناقشة هو ما اذا كان استئناف الزحف مرة أخرى قبل فوات الأوان لا يؤدى الى النجاح ، اذ أن ذخيرة الأتراك كانت قد نفدت ، وان فى مثل هذه الظروف قد يمكن التغلب على مسألة الألغام . على ان القائد البحرى الجديد الأميرال "دوروبك" استقر رأيه على ألا يقوم بهذا العمل الا اذا وجدت مساعدة عسكرية . وكان مجلس الحرب قد صمم قبل ذلك بشهر على القيام بهجوم مشترك وشرع فى ارسال قوة عسكرية تحت قيادة السير "إيان هملتون" . غير أن السلطات حينما اعتمدت على الخطة الجديدة تأخرت فى إخلاء الجنود اللازمة لها وحتى بعد ارسالها أقساما لا تفى بالمراد اضطرت لقضاء عدة أسابيع أخرى فى مطل — بالاسكندرية — لتوزيع القوة على السفن النقالة بصورة ملائمة للعمل التكتيكى ، وأفظع من ذلك كله أن هذه السياسة المتسكعة قد أضاعت فرصة المفاجأة . فلما حصل الضرب (بالمدافع) التمهيدى فى فبراير كان لا يوجد بالبوغاز سوى فرقتين تركيتين ، فأصبحت أربع فرق فى التاريخ الذى حصل فيه الهجوم البحرى ، وصارت ست فرق عندما تمكن "هملتون" أخيرا من محاولة انزال الجنود الى البر . وفى هذه العملية كانت جنوده لاتزيد على أربع فرق بريطانية وفرقة فرنسية — وهى قوة أقل عددا من قوة العدو ، فعلا ، وفى موقف يتفوق فيه الدفاع على الهجوم بطبيعتهما ، يضاف الى ذلك عامل آخر هو وعورة الأراضى الطبيعية . فاضطر بسبب ضعفه العددى وتحديد مهمته وهى معاونة الأسطول فى مروره ، لأن يختار لنزول جنوده الى البر ، شبه جزيرة "غاليبولى" مفضلا اياها على نقطة على البر الأصلى أو على الساحل الأسيوى .

وفى ٢٥ أبريل وثب وثبته على الطرف الجنوبى من شبه الجزيرة بالقرب من رأس "هليس" وقريبا من "جبه تبه" أى نحو ١٥ ميلا صعدا على الشاطئ "الايجى" . أما الفرنسيون فلكى يشتتوا أفكار العدو نزلوا الى البر موقتا فى "قوم قلعه" على الشاطئ الأسيوى . ولكن بمجرد ما ضاعت الميزة الوقتية وهى ميزة المباغتة التكتيكية ، واستطاع الأتراك جلب جنودهم الاحتياطية ، لم يتمكن الغزاة من توسيع موطئ أقدامهم الركيكين .

وأخيرا استقر رأى الحكومة البريطانية فى يوليه على ارسال خمس فرق أخرى لتقوية السبع الموجودة فى شبه الجزيرة . ولما وصلت كانت قوة الأتراك فى تلك الجهة قد ازدادت هى ايضا حتى صارت ١٥ فرقة . فصمم "هملتون" على انزال ضربة مزدوجة — ضربة معززة من جبه تبه وانزال جنود جديدة فى خليج (شرم) "سوفلا" على بعد بضعة أميال شمالا — ليفصل منتصف شبه الجزيرة ويستولى على المرتفعات الحاكمة على المضايق . وهذه الهجمة وان كانت تظهر انها مباشرة أكثر مما اذا كان انزال الجنود فى "بولاير" أو على الشاطئ الأسيوى ، الا أن الذى يبررها هو أنها على خط لم تتوقعه قيادة العدو التى كانت جنودها الاحتياطية محتشدة فى النقط الأخرى . فلم يسد الطريق أمامها سوى أورطة ونصف أورطة

من الأتراك مدة ٣٦ ساعة قبل وصول الاحتياطى . وقد ضاع هذا الوقت وأفلتت تلك الفرصة بسبب عدم خبرة الجنود التى نزلت الى البر و جمود القادة الموجودين معهم . ثم جاء التوقف ، وخيبة الأمل ، ومعارضة الذين كانوا دائما ضد هذا المشروع فكانت سببا للاسراع بالجلاء عن شبه الجزيرة . والحكم الذى أصدره "فالكنهاين" فى خطة الدردنيل هو : "لو لم تقفل البواغيز بين البحر الأبيض المتوسط والبحر الأسود قفلا دائما أمام دول الائتلاف لنقص الأمل فى مجرى الحرب مع النجاح نقصا فى غاية الأهمية . فكانت الروسيا تخلص من عزلتها ذات المغزى ، التى هى ضمان آمن من الفوز العسكرى ، فانه طال الزمن أو قصر لا بد من أن يأتى وقت تصبح فيه قوات هذا الجبار كسيحة مقعدة ، من تلقاء نفسها" فالخطأ ليس فى الفكرة بل هو فى تنفيذها . فلو أن البريطانيين استخدموا من بادئ الأمر حتى واو مقدارا من الجنود بنسبة معتدلة لعدد الجنود التى بذلوها فى نهاية الأمر وهى تتوارد قسما قسما ، فان من البين من شهادة قادة العدو أن عملهم كان يكلل بالنجاح . وحركة الدردنيل وان كانت اقترابا مباشرا بالنسبة لتركيا . فانها كانت اقترابا غير مباشر بالنسبة لجيوش تركيا الرئيسية التى كانت اذ ذاك تقاتل فى القوقاز ، وفى المستوى الأعلى كانت اقترابا غير مباشر بالنسبة لدول الوسط بجملتها . و بالمقارنة بين فكرة الدردنيل ، والأمانى العقيمة المظلمة التى وضعت فى فرنسا وهى التى لم تلق عليها التجاريب التاريخية شعاع واحد من الأمل ، يظهر أن فكرة الدردنيل قد أوفت قانون التوفيق بين الغاية والوسائل حقه ، بقدر ما كان تنفذها مخالفا لهذا القانون .

مسرحا فلسطين والعراق — ان تجريدات الشرق الأوسط لاتكاد تدخل تحت نطاق هذه المطالعات . فهى من الوجهة الاستراتيجية كانت أكثر بعدا مما يجعل لها أى أمل فى أن تكون ذات تأثير حاسم ، من جهة ، و بصفتها حركات تخفيفية تحول أفكار العدو نحوها قد استدعت قوات من البريطانيين أعظم بكثير مما استوقفت من قوات العدو ، من جهة أخرى .

أما فى دائرة السياسة ففى الامكان وضع قضية . فان بريطانيا كانت دائما تتمتع بالرخاء الكثير بجرها المغانم من بلاد العدو (تلتقط البرقوق من بستان العدو) وليس ذلك فحسب ، بل انها كانت تمنع الخطر عن حلفائها وتستعيض عن خسائرهم بما تجره من تلك المغانم ، بينما يقوم النضال بين القوات الرئيسية للحلفاء والعدو فتنهك كل منهما قوى الأخرى بحثا وراء باب للخروج منه . وفى حالة انتهاء النضال الرئيسى الى نتيجة غير مرضية كانت تبقى لديها المغانم (البرقوق) لتساوم عليها . أما اذا جاءت النتيجة على ماتشتهى فكانت تأخذ ماغنمته و ينتهى الأمر . وعلى ذلك فهناك سبب ، على الأقل ، للبحث فيما اذا كانت هذه السياسة غير العسكرية لا تستحق أن تتطور حتى تصير نظرية من نظريات الاستراتيجية العظمى يسترشد بها البريطانيون .

على أن الاستراتيجية المحلية لتجريدة فلسطين جديرة بالدراسة . فهى فى بادئ الأمر كانت جامعة بين عيوب كل من الاقتراب المباشر والاقتراب غير المباشر . اذ اتبعت خط الانتظار الطبيعى الذى كان من جهة أخرى أطول وأشق طريق للدوران الى أية نقطة حيوية عند الدولة التركية . وبعد الفشل الذى صادفته للمرتين الأوليين فى "غزة" التى كانت تحرس طريق الاقتراب المباشر الساحلى من مصر الى فلسطين ، استخدمت فى شهرى مارس وأبريل سنة ١٩١٧ الجنود التى زاد عددها وكانت معدة لفصل الخريف ، فى محاولة أقل مباشرة من سابقتها . فالخطة التى رسمها "تشتوود" واتبعها "أللنبى" بعد حلوله محل "مرى" فى القيادة كانت فى الحقيقة غير مباشرة من الوجهة الجغرافية بحسب ما سمحت به موارد المياه وضيق الدرب بين البحر والصحراء . أما دفاعات الأتراك ومعاقلهم فكانت ممتدة الى مسافة نحو ٢٠ ميلا من "غزة" الى الداخل فى حين أن وراءها على مسافة عشرة أميال تقع "بيرشبا" التى هى النقطة الخارجية التى تحرس الحافة الشرقية للساحة التى يمكن الاقتراب منها . ثم ان التكتم والحيلة وجهتا انتباه الأتراك نحو "غزة" وبعدها حصل الاستيلاء على "بيرشبا" وما بها من المياه بالانقضاض على جانبها الذى لا حماية له بحركة سريعة فى نطاق واسع . والذى يلى ذلك فى الخطة ضربة موجهة الى جناح الموقع التركى الرئيسى يسبقها هجوم على غزة يقصد منه تحويل انتباه العدو اليها . بينما يقوم الفرسان من "بيرشبا" بحركة كاسحة تدور الى مؤخرة الأتراك غير أن صعوبات الحصول على المياه وضربة مضادة قام بها الأتراك شمالى "بيرشبا" عرقلتا هذه المناورة ومع أن جبهة الأتراك اخترقت لم تحصل نتائج حاسمة . ثم ان قوات الأتراك ارتدت ورجعت الى الوراء أخيرا حتى تجاوزت القدس ولكن رجعتها لم تقطع عليها كما كان فى النية .

فأرجئ الحسم ومحاولة الوصول اليه لمدة سنة — حتى سبتمبر سنة ١٩١٨ . وفى نفس الوقت قامت حملة حربية فى الصحراء غريبة فى بابها شرقا ، وجنوبا ، لم تقتصر على اضعاف قوة تركيا الحربية ، بل ألقت ضوءا جديدا على الاستراتيجية وخصوصا على الاقتراب غير المباشر هذه الحملة هى حملة ثورة العرب التى كان "لورنس" رأسها المرشد . فهى وان كانت من نوع حرب العصابات التى هى بطبيعتها اقتراب غير مباشر ، الا أن استراتيجيتها كانت قائمة على أساس حسابى علمى يجب علينا ألا نغفل تأثيره على الحروب العادية ، فمن المسلم أنها صورة متطرفة من الاقتراب غير المباشر ثم انها كانت ذات أثر فعال فى منتهى الاقتصاد فى حدود قوتها . فالعرب أخف حركة من الجيوش النظامية وأقل منها تحملا للخسائر . أما الأتراك فكانوا يكادون لا يبالون بما يصيبهم من الخسائر فى الرجال . أما خسائر المواد فكانوا يتأثرون لها — نظرا لقلتها عندهم . فهم من أنفر الجنود متى استقروا فى خنادق يطلقون منها النار على هدف

متقدم اليهم ولكنهم لا يصلحون للعمليات الطيارة التى لاتثبت فى مكان ولا يتحملونها وكانوا يحاولون المحافظة على ساحة شاسعة من الأراضى فى حين أن عددهم لا يكفى للانتشار عليها فى نقط موضوعة على صورة شبكة . كما كانوا يعتمدون فى مواصلاتهم على خط طويل وضعيف .

ولهذه الظروف تطورت استراتيجية على نقيض الأصول المرعية . فبينما الجيوش العادية تسعى للمحافظة على اتصال أجزائها بعضها ببعض ، الا اذا قادها نابليون مثلا ، كانت العربان تسعى لاجتناب الانضمام . وفى الحين الذى تسعى فيه الجيوش العادية لائتلاف القوات التى تناوئها يسعى العربان لائتلاف المواد لاغير ، ويسعون لذلك فى النقط التى لاتوجد بها قوة . بل يذهبون الى أبعد من ذلك . فبدلا من أن يجتهدوا لأن يطردوا العدو بأن يحولوا بينه وبين مؤنه ، كانوا يرمون الى ابقائه حيث هو بأن يسمحوا بوصول قسم من مؤونته اليه حتى انه كلما طال أمد بقائه ازداد ضعفا وخارت عزيمته . فان الضربات قد تحضه على الاحتشاد تسهيلا لمسألتى مؤنه وسلامته . أما وخز الابر فيبقيه مشتتا . ومع ذلك فان هذه الاستراتيجية مع كل مافيها من الشذوذ لم تؤد الى غايتها المنطقية التى هى اتباع خط أقل درجات المقاومة . وكما قال مبتكرها " لم يسع الجيش العربى مطلقا لأن يحافظ على ميزة أو أن يزيدها . بل كان ينتقل وينزل ضربته مرة أخرى فى مكان آخر . فكان يستخدم أقل قوة فى أسرع وقت وأبعد مكان لأن استمراره فى القتال حتى يغير العدو أوضاعه لكى يقاومه فيه اخلال بالقاعدة الأساسية التى هى حرمان العدو من هدف يصوب اليه ضرباته " .

اذن ماهذه الاستراتيجية ان لم تكن هى نفس الاستراتيجية التى تطورت فى سنة ١٩١٨ على الجبهة الغربية ؟ انها هى ذاتها فى جوهرها ولكنها تمادت الى درجة أبعد . أما تطبيقها على مسألة الحروب العادية فانه يتوقف على عوامل الزمن ، والمسافة ، والقوة . فبينما هى صورة من صور الحصر سريعة ونشيطة اذ هى بطبيعتها أبطأ فى احداث تأثيرها من استراتيجية الحسم ومن ثم اذا كانت الظروف القومية تجعل الحسم أمرا لابد منه فالظاهر أن استراتيجية الحسم هى الأفضل . ولكن مالم يكن السعى وراء الغاية باقتراب غير مباشر فالمتوقع أن الأخيرة تكون أبطأ ، وأكثر كلفة ، وأشد خطرا من استراتيجية "لورنس" ثم ان ضيق المكان وغزارة القوة هما أيضا عائقان ، وان كان عدم التغلب عليهما من الأمور النادرة . فالقرار الصائب هو أنه فى الحروب العادية تختار صورة الاقتراب غير المباشر الذى يرمى الى سرعة الحسم "بنصب شرك" للعدو ، متى قوى الأمل بنجاحه . وبخلاف ذلك ، أو بعد فشله ، فان الخيرة يجب أن تقع على صورة الاقتراب غير المباشر الذى يرمى الى الحصول على الحسم فى آخر الأمر بتقويض قوة العدو وارادته . فان كل شىء أفضل من الاقتراب المباشر .

ولم تتح الفرصة لاكمال استراتيجية الثورة العربيـة الى نهايتها . ففى سبتمبر سـنة ١٩١٨ بعد أن أضعفت القوات التركية التى كانت على خط الحجاز حتى صيرتها فى حالة شلل يرثى لهـا غلبت القوات التركية الرئيسية بفلسطين بضربة واحدة حاسمة . ومع ذلك ففى هذه الضربة التى أنزلهـا أللنبى لعبت القوات العربية دورا هو على الأقل جدير بالذكر .

أما فيما يختص بنوع العمليات الختامية فى فلسطين وهل هى حملة حربية ، أم معركة أتمها التعقب فذلك ما لا يمكن الحكم فيه . لأنهـا ابتدأت والقوى متماسة وتم النصر قبل أن ينفصم التماس . ولذا فالظاهر انهـا تقع فى فئـة المعارك . غير أن احراز النصر كان بوسائل استراتيجية بصفة رئيسية ، ولم يكن نصيب القتال فيها ممـا يستحق الذكر .

وقد أدى ذلك الى الحط من قيمـة النتيجة خصوصا بين الذين يقدرون القيمة بحسب عقيدة "كلاوزيفتز" أى ان الدم هو ثمن النصر . واذا كان "أللنبى" قد تفوق على خصمه فى الرجال بنسبة أكثر من اثنين الى واحد ، وأقل من ذلك فى المدافع . فان الفرق الذى كان فى جانبـه لم يكن بالدرجة التى كانت فى الأصل حينما بدأ الزحف البريطانى الى فلسطين وهو الذى انتهى الى الفشل . وكثيرا ما أخفقت الحركات التعرضية فى الحرب العالمية وقبلها وكان التفوق فى القوة فى جانبها مثل هذا التفوق .

وهناك "حط من القيمة" أكثر أهميـة من السالف . سببه أن قوة الأتراك المعنوية كانت قد انحطت . ولكن بعد مراعاة كل شىء فى ظروف شهر سبتمبر سـنة ١٩١٨ التى كانت توجب الرضاء ، فان هذه العمليات جديرة بأن تسطر بين الأعمال المجيدة التى سطرها التاريخ من حيث اتساع دائرة مرمى النظر ، والمعالجـة . واذا كان الموضوع فى حد ذاته ليس صعبا فان الصورة التى رسمت تكاد تكون وحيدة فى نوعها بصفتها ابتكارا بلغ حد الكمال ونفذ على أكمل وجه ولو فى جملته .

فقد جاءت الخطة مطابقة بدرجةعظيمة لتعريف "ويليسون" عن الاستراتيجية وهو أنها "دراسة المواصلات" وللقول المأثور عن نابليون وهو : "ان كل سر فن الحرب هو فى أن يجعل الانسان نفسه سيدا على المواصلات" لأنها (أى الخطة) كانت ترمى الى جعل البريطانى سيدا على كل المواصلات التركية فى كل صورها . فان قطع خطوط مواصلات الجيش معناه اصابة تنظيمه المـادى بالشلل ، وسد خط رجعتـه معناه اصابة تنظيمه المعنوى (الأدبى) بالشلل . واتلاف خطوط "مواصلاته الداخلية" التى تمر منها الأوامر والأخبار (التقارير) معناه اصابة تنظيمه الحسى بالشلل ، وهو الاتصال الجوهرى بين المخ والجسم . وهذا الشق الثالث سعت له القوة الجوية وأحرزته . فقد طردت طيارات العدو من الجو فصيرت قيادته عمياء . ثم ألقت قنابلها على المركز الرئيسى لمخابراتها التلغرافية والتليفونية فصيرتها صمـاء

بكاء . وقد جاء الطور الثانى فى هذا القتال على أثر قطع العرب للسكة الحديدية الرئيسية فى "درعا" فكان لهذا القطع تأثير مادى هو منع تدفق المؤن التركية موقتا — والمنع الموقت كان كل مايهم فى ذلك الحين — وتأثير عقلى هو حض القيادة التركية على ارسال جزء من جنودها الاحتياطية الضئيلة الى هناك قبيل حرمانها من قوة السيطرة عليها .

فان ما يسمونه الثلاثة "الجيوش" التركية كانت تعتمد على شريان واحد للواصلات هو خط حديدى مفرد من دمشق يفترق فى "درعا" فيمتد خط منه جنوبا الى الحجاز و يتجه الآخر غربا عبر نهر "الأردن" الى "الأفولة" وهناك يشعب منه فرع نحو البحر فيصل الى حيفا وآخر نحو الجنوب مرة أخرى حتى رأس الخط الحديدى الخاص بالجيشين التركيين السابع والثامن . أما الجيش الرابع الموجود شرقى نهر "الأردن" فكان يعتمد على فرع الحجاز . والاستيلاء على "الأفولة" وعلى معبر "الأردن" فى "بيسان" يقطع مواصلات الجيشين السابع والثامن كما يسد خطى رجعتهما فيما عدا المنفذ الوعر المؤدى الى الجزء الخراب الواقع شرق "الأردن" والاستيلاء على "درعا" يقطع مواصلات كل الثلاثة الجيوش ، وأحسن خط لرجعة الجيش الرابع .

أما "درعا" فكانت بعيدة عن متناول الجبهة البريطانية وكان ذلك فى وقت قصير لدرجة تجعل لقصره تأثيرا هاما على النتيجة . ولحسن الحظ ظهر العربان من جوف الصحراء كما تظهر الأشباح الخيالية واثبين على كل خطوطها الحديدية الثلاثة فقطعوها . غير ان لا طبيعة التكتيكات العربية ، ولا طبيعة البلاد ، ولا طبيعة "درعا" كانت مما يساعد على اقامة حاجز استراتيجى عبر مؤخرة الأتراك . و بما أن اللنبى كان يسعى للحصول على حسم سريع تام كان لابد له أن يبحث عن مكان أقرب لاقامة مثل هذا الحاجز . مكان يمكن الانتفاع فيه بنهر "الأردن" وسلسلة الجبال الواقعة غربيه للحيلولة دون خروج الأتراك منه . وكانت محطة اتصال السكة الحديدية الموجودة فى "الأفولة" وجسر (كوبرى) نهر "الأردن" الموجود بالقرب من "بيسان" كلاهما على مسافة نصف قطر دائرة طوله ٦٠ ميلا ، ومن ثم فى نطاق "وثبة" استراتيجية تقوم بها السيارات المدرعة والفرسان على شريطة الوصول الى هاتين النقطتين الحيوتين دون عائق . فكانت المسألة والحالة هذه هى ايجاد خط اقتراب يصعب على العدو اقامة العراقيل فيه فى الوقت الملائم . ثم التأكد من ذلك . فعلى أى صورة حلت هذه المسألة ؟ كان سهل "شارون" الساحلى المسطح بمثابة ردهة أمامية لسهل "ازدرالون" وادى "جزريل" حيث تقع كل من "الأفولة" "و بيسان" وهذه الردهة لا عائق فيها سوى باب واحد يقع بعيدا الى الوراء لدرجة أنه ترك من غير حراسة وهو مكون من المنطقة الجبلية الضيقة التى تفصل سهل "شارون" الساحلى من سهل "ازدرالون" الداخلى . غير أن المدخل الموصل الى الردهة الأمامية قد أغلقه الأتراك وأوصدوه بمتاريسهم .

وهنا ثابر "أللنبي" فى "استعداداته النفسية" مدة طويلة مثابرة حلت فيها الحيلة والخدعة محل القنابل الى أن حول انتباه الأتراك عن الساحل الى جناح نهر "الأردن" والذى ساعده على ذلك هو اخفاق المحاولتين السابقتين للزحف شرقى "الأردن" فى فصل الربيع . وفى سبتمبر بينما كان انتباه الأتراك ما زال موجها نحو الشرق ، وكانت جنود "أللنبي" تتنقل سرا نحو الغرب حتى ازدادت نسبة تفوقهم عددا على العدو فى القطاع القريب من الساحل من اثنين الى واحد الى أن صارت خمسة الى واحد . وفى ١٩ سبتمبر زحف المشاة بعد أن استمر ضرب المدافع بدرجة شديدة لمدة ربع ساعة واكتسحت متاريس الأتراك التى كانت على مجموعتين سيطتين . ثم دارت دورة الى الداخل كما يدور باب مهول على مصلاته . واندفع الفرسان من الباب المفتوح موالين الضغط وساروا فى الردهة تتقدمهم سياراتهم المدرعة فاستولوا على الممرات الموصلة الى سهل "إزدرالون" . وهذا المرور الموفق مدين فى نجاحه بشىء كثير لما قامت به القوة الجوية من جعل قيادة العدو صماء ، بكماء ، عمياء . وفى اليوم التالى أقيم الحاجز الاستراتيجى عبر مؤخرة الأتراك . والمنفذ الوحيد الذى تبقى لهم هو نحو الشرق فوق نهر الأردن . وكان فى امكانهم الوصول اليه لولا القوة الجوية ، اذ أن زحف المشاة المباشر كان بطيئا أمام المقاومة العنيفة التى قامت بها مخافر الأتراك الخلفية . وفى الصباح المبكر من يوم ٢١ سبتمبر تعرفت الطيارات البريطانية على قول عظيم — هو فى الواقع جميع من بقوا على قيد الحياة من الجيشين التركيين — يسير فى ليات الوهد العميق الموصل من "نابلس" الى نهر "الأردن" . فهاجمته لمدة أربع ساعات صار بعدها هذا الموكب هامدا جامدا . ومن تلك اللحظة يصح القول بانعدام « الجيشين » السابع والثامن . أما ما حصل بعد ذلك فلم يزد عن مطاردة قطيع من الماشية .

وأما فى شرقى "الأردن" حيث لا يستطاع اقامة حاجز استراتيجى فقد كان مصير « الجيش » الرابع الى الانهاك السريع تحت وخز الابر المستديم بدلا من الاجهاز عليه اجهازا بالمعنى الصحيح . وأعقب ذلك الاستيلاء على دمشق . وعندها استغل النصر بالزحف الى "حلب" وما كادت الجنود تصل اليها حتى سلمت تركيا مدفوعة بعامل التهديد القريب الواقع عليها بانهيار بلغاريا ، وباقتراب "ملن" من سلانيك الى استانبول ومؤخرتها .

والذى يلاحظه من يحلل هذا النصر الحاسم الذى أحرز فى فلسطين هو أن الأتراك كان ما يزال فى طاقتهم أن يعوقوا مشاة البريطانيين ويوقفوهم الى أن علموا بالحاجز الاستراتيجى الذى أقيم على مؤخرتهم فأحدث ذلك التأثير الأدبى الذى لا بد منه ولا معدى عنه . ويلاحظ أيضا أنه بسبب وجود حالة حرب الخادق من بادئ الأمر كان لا بد من أن يقوم المشاة بتحطيم هذا الرتاج . ولكن بمجرد اعادة الحرب الى حالتها المعتادة أمكن احراز النصر بالعناصر الخفيفة

الحركة التى لم تكن الا جزءا من مجموع القوة . فالدهاء الذى اتصف به هذا المثال الخاص من الاقتراب غير المباشر كان قاصرا على التمهيد . أما تنفيذه فكان متوقفا على مجرد تطبيق خفة الحركة التى من شأنها أن تزحزح العدو وتدمر قوته المعنوية . ولما كانت هذه الخفة بدرجة متطرفة فقد جاءت مفاجئة من أول الأمر الى آخره .

وهناك مسرح آخر فى الجنوب الشرقى يحتاج الى ملاحظة عارضية — ذلك هو مسرح سلانيك . فان ارسال جنود الحلفاء اليه نشأ عن محاولة غير مثمرة تأخرت عن أوانها هى محاولة ارسال مدد الى بلاد الصرب فى خريف سنة ١٩١٥ و بعد ذلك بثلاثة أعوام كانت سلانيك منشأ حركات تعرضية كانت لها نتائج حيوية . غير أنه لما كان الاحتفاظ بموطئ قدم فى البلقان أمرا ضروريا فى كل هذه الفترة لأسباب سياسية ، وأخرى تستند الى استراتيجية فى دائرة الاحتمال ، فان الأمر الذى هو موضع الشك هو الحكمة فى حجز عدد كبير من الجنود كهذا العدد الذى بلغ أخيرا نصف مليون وضرورة ابقائه محجوزا كل هذه المدة فى مكان سماه الألمان من باب السخرية « أكبر معسكر للاعتقال » أى أكبر معتقل للجنود .

الباب الرابع عشر

استراتيجية سنة ١٩١٨

تتوقف أية دراسة لمجرى الشؤون العسكرية فى السنة النهائية على فهم الموقف البحرى السابق لها ، فكل منهما مرتبط بالآخر . لأنه لما لم يحصل حسم عسكرى مبكر ، أخذ الحصر البحرى يتحكم فى الموقف العسكرى تحكما صار يزداد على توالى الأيام .

وفى الواقع فان مؤرخ المستقبل اذا اضطر لأن يختار يوما ليعتبره اليوم الحاسم للحرب العالمية فمن المحتمل أنه يختار اليوم الثانى من شهر أغسطس سنة ١٩١٤ — قبل أن تبتدئ الحرب من ناحية انجلترا — حينما أرسل المستر " ونستون تشارتشل " أمره فى الساعة الواحدة والدقيقة الخامسة والعشرين صباحا ، بتعبئة البحرية البريطانية . فهذه البحرية لم تكن لتربح معركة " طرافلجار " (الطرف الأغر) مرة ثانية ، ولكن كان مقدارا لها أن تعمل أكثر من أى عامل آخر لكسب الحرب لجانب الحلفاء . لأن البحرية كانت آلة الحصر البحرى . وكلما زالت غيوم الحرب وانقشعت فى ضوء هذه السنين التى أعقبت الحرب وانكشفت غيومها كلما تبين أن الحصر البحرى كان له أثر أخذ يزداد شيئا فشيئا . ويتضح بجلاء أنه كان العامل الحاسم فى النضال . فمثله كمثل ذلك « القميص » الذى كانوا يستعملونه فى سجون أمريكا لتأديب شرسى الأخلاق من المسجونين اذ كان يزداد ضيقه تدريجيا فيبدأ بالتضييق على حركات السجين ، ثم يخمد انفاسه . فى حين انه كلما زاد ضيقا وطال بقاء ذلك الضيق نقصت قوة مقاومة السجين وزادت قوته المعنوية خورا لشعوره بالضغط .

والعجز يستجلب العجز ، ويشهد التاريخ أن فقدان الأمل لا فقد الأرواح هو العامل الحاسم فى نتيجة الحرب . وليس من المؤرخين من لا يقدر التأثير المباشر الذى أحدثته شبه المجاعة بين الشعب الألمانى تمام التقدير ، وتسبب عنه انهيار « الجبهة — الوطنية » . ثم لندع جانبا مسألة ما كان للثورة من الأثر فى الهزيمة العسكرية ، بدلا من العكس . فان عامل الحصر البحرى وهو العامل الذى لا يمكن أن يمس والذى ساد على كل شىء كان له أثره فى الموقف العسكرى من حيث أى اعتبار كان .

فالواقع هو أن التهديد الذى أصبح حصوله فى دائرة الامكان من جراء الحصر البحرى ، ومن المحتمل أنه لم يكن تأثيره نفسه ، هو الذى أرغم ألمانيا على القيام بحملة الغواصات لأول مرة فى فبراير سنة ١٩١٥ وهى التى حفزت بريطانيا الى اطلاق « تصريح لندن » من عقاله لزيادة تضييق الحصر البحرى — مطالبة بحقها فى التعرض لكل السفن المشتبه بأنها تحمل بضائع لألمانيا وتفتيشها — ولكن ألمانيا نسفها السفينة « لوزيتانيا » بالطوربيد هيئات للولايات

المتحدة سببا دافعا لها لدخول الحرب، وان كان ذلك السبب جاء متأخرا . فضلا عن أنه كان مزيلا لما كان من الاحتكاك بين بريطانيا والولايات المتحدة من جراء زيادة تضييق الحصر البحرى . وبعد ذلك بسنتين كان الضيق الاقتصادى المتسبب عن الحصر البحرى باعثا على مصادقة قادة ألمانيا العسكريين على تجديد حملة الغواصات « من غير حد » تجديدا فى غاية الشدة . وكان اعتماد بريطانيا فى تموين شعبها واعاشة جيوشها على مايرد اليها عن طريق البحار نقطة ضعيفة فى درعها الواقى . ثم ان تأثير الغواصات الذى هو بطبيعته أسرع من غيره فى تنفيذ الحصر البحرى قوى حجة القائلين بأن هذا الاقتراب غير المباشر القائم على الاستراتيجية العظمى ستكون ضربته مميتة . واذا كان هذا الحساب قد ظهر خطؤه فان بريطانيا كانت على وشك أن تثبت صحته . فقد زادت الخسائر فى السفن من ٥٠٠,٠٠٠ طن فى شهر فبراير الى ٨٧٥,٠٠٠ فى أبريل . ولما اتخذت التدابير المضادة مضافا اليها قلة موارد ألمانيا فى الغواصات وعدم كفايتها فأنقصت هذا المقدار تدريجيا، كان الموجود من الأطعمة لدى بريطانيا لايكفى لتموين أهاليها الا لمدة ستة أسابيع أخرى .

فان آمال قادة ألمانيا فى الحصول على حسم اقتصادى كان لها رد فعل على خوفهم من الانهيار الاقتصادى وأدت بهم الى افتتاح حملة الغواصات مدركين كل الادراك مافى ذلك من المجازفة باستجلاب الولايات المتحدة لدخول الحرب ضدهم راضين به كأمر يكاد يكون محققا . وهذه المجازفة أصبحت حقيقة فى ٦ أبريل سنة ١٩١٧، ومع أن قوة أمريكا العسكرية كانت تحتاج الى وقت طويل تتهيأ فيه، كما حسب الألمان، فان دخولها الحرب كان له تأثير سريع فى زيادة وطئة الحصر البحرى . فلما أصبحت الولايات المتحدة شريكة فى الحرب تناولت هذا السلاح الاقتصادى واستعملته بعزيمة صادقة ضاربة صفحا عمن تبقى محايدا من الدول، ووافقت أشد مزاعم بريطانيا جرأة فى محاولات السنين الماضية فيما يختص بحقوق المحايدين . ومن ذلك الوقت لم يلق الحصر البحرى عائقا من معارضة المحايدين . بل على العكس فان تعاون أمريكا حوله الى تضييق خانق رزحت تحته ألمانيا فأخذ يستنزف صلابتها حتى تراخت أعصابها، بما أن القوة الحربية تقوم على أساس الجلد الاقتصادى — وهى حقيقة كثيرا ما أغفلت . والحصر البحرى قد يدخل فى فئة الاستراتيجية العظمى القائمة على الاقتراب غير المباشر والتى لا تستطاع مقاومتها مقاومة مثمرة . وهى من طراز لامجازفة فيه الا من حيث بُطء تأثيره . ومع ذلك فان تأثيره يطابق قانون القوة الطاردة التى تنزع الى ازدياد السرعة كلما استمرت . وفى نهاية سنة ١٩١٧ أحست به دول الوسط بدرجة شديدة . وهذا الضغط الاقتصادى هو الذى استدرج، بل اضطر، ألمانيا الى القيام بالحركات التعرضية فى سنة ١٩١٨ التى بمجرد مافشلت أصبحت انتحارا . فلما لم تتح لها حركة جدية لعقد الصلح لم يبق لها خيار بينها وبين الضعف البطىء يستولى عليها الى أن ينتهى بانهيارها .

فلو أنها عقب معركة "المارن" فى سنة ١٩١٤ ، أو فيما بعدها ، انتهجت سياسة حربية قوامها الدفاع فى الغرب والتعرض فى الشرق ، لكان من الممكن أن تنتهى الحرب على غير ما انتهت اليه . لأنها من جهة كان فى امكانها من غير شك أن تحقق حلمها فى "أوربا الوسطى" ، ومن جهة أخرى كان اذ ذاك الحصر البحرى مايزال رخوا وما كان فى الامكان تشديده بدرجة مثمرة ما دامت الولايات المتحدة خارج حلبة الحرب . ومتى صارت كل منطقة أوربا الوسطى تحت سيطرتها . وخرجت الروسيا من الحرب ، حتى ولو كانت ألمانيا تابعة اقتصاديا أى متوقفة اقتصاديا على غيرها . فليس هناك سوى اعتقاد ضعيف بأن مساعى كل من بريطانيا ، وفرنسا ، وايطاليا كان فى امكانها أن تفعل شيئا أكثر من حض ألمانيا على التنزل عن بلاد البلجيك وشمال فرنسا ، وهما موضوع المساومة ، نظير ابقائها ماربحته فى الشرق لنفسها لاينازعها فيه منازع ، حتى اذا تيسر ذلك لهذه الدول . ثم ان ألمانيا وهى أكبر مما كانت ، وأكبر أيضا من حيث القوة والموارد اللذين يصبحان فى مقدورها ، تستطيع أن تتجاوز عن رغبتها فى الحصول على نصر حاسم على الحلفاء الغربيين . وفى الحقيقة فان التجاوز عن الغايات التى لا تستحق ما يبذل فى سبيلها هو الفرق بين الاستراتيجية العظمى والبلاهة المتعظمة .

غير أن فى سنة ١٩١٨ كانت الفرصة قد أفلتت ، وكان تجلدها الاقتصادى نقص نقصا كبيرا وأخذ تضييق الحصر البحرى يضعفها بأسرع ما كان يعوضه عليها مايأتيها من موارد البلاد التى فتحتها مثل "رومانيا" و"أوكرانيا" .

فهذه هى الظروف التى حصل فيها التعرض الألمانى الأخير . وما هو الا آخر سهم فى كنانتهم للحصول على حسم عسكرى منقذ . فان اخلاء الجنود من الجبهة الروسية جعل التفوق فى جانبهم ، وان كان أقل بكثير من تفوق الحلفاء فى حملاتهم التعرضية . ففى مارس سنة ١٩١٧ اصطفت ١٧٨ فرقة فرنسية ، و بريطانية ، و بلجيكية مقابل ١٢٩ فرقة ألمانية . وفى مارس سنة ١٩١٨ تواجدت ١٩٢ فرقة ألمانية مقابل ١٧٣ فرقة من الحلفاء — بما فيها الفرق الأميركية المزدوجة التى وصل منها أربع فرق ونصف فرقة . واذا كان فى استطاعة الألمان أن يأتوا ببضع فرق أخرى من الشرق ، فان فيض الجنود الأميركية الذى بدأ رشاشا تطور حتى صار سيلا منهمرا تحت ضغط الحاجة الماسة . ومن مجموع الجنود الألمانية كان يوجد ٨٥ فرقة ممن يسمون «فرق الاقتحام» كانت احتياطيا . وكان احتياطى الحلفاء ٦٢ فرقة — ولكنها كانت من غير سيطرة مركزة . لأن التدابير الوقتية التى يقتضيها ايجاد احتياطى عام ، التى اتخذت لايجاد ٣٠ فرقة تحت أمر لجنة "فرسايل" العسكرية التنفيذية اختل نظامها حينما أعلن "هايج" أنه لا يقدر أن يقدم نصيبه منها وهو ٧ فرق . ولما جاءت التجربة اختل الاتفاق الذى كان بين القائدين الفرنسى والبريطانى على مساعدة كل منهما الآخر . فحلت الكارثة بأسرع ما كان منتظرا . وعلى أثر ذلك اقترح "هايج" تعيين "فوش" ليضع الجيوش المتحالفة على قدم المساواة و يوفق بينها فى بادئ الامر ثم يتولى قيادتها العامة بعد ذلك .

وكانت خطة الألمان تمتاز بالبحث عن مفاجأة تكتيكية أدق وأبعد مرمى مما سبق فى كل عمليات الحرب . ومما تمدح عليه القيادة الألمانية ورجال أركان الحرب منهم انهم أدركوا أن الشيء الواضح فيه عائق لا تعوضه زيادة القوة ، ومتى وجد العائق قل أن تستطيع هذه القوة التغلب عليه . وأن المفاجأة المثمرة لا يمكن الحصول عليها الا باشتراك عناصر خادعة اشتراكا يقوم على الدهاء والحيلة . وأن بغير هذا الاشتراك وهو المفتاح لا يستطاع فتح ثغرة فى الجبهة المغلقة منذ زمن طويل . وكان العنصر الرئيسى من هذه العناصر هو اطلاق قنابل — الغاز لفترة قصيرة ولكن بشدة متناهية . وكان " لودندورف " قد فاته ادراك ما للدبابة من التأثير فلم يرقها فى الوقت المناسب . ولكن زيادة على ذلك كانت جنود المشاة قد تدربت على تكتيك حديث لمرورها من الفتحات التى توجد . والفكرة الرئيسية فيه هى أن تتحسس الجنود الأمامية وتنفذ من النقط الضعيفة الموجودة فى دفاع العدو ، بينما أمرت الجنود الاحتياطية أن تعضد الفوز ولا تستعيض عن الفشل أى أن تقوى الجنود الناجحة ولا تحاول تعضيد الذين لا ينجحون . والفرق المقتحمة تتقدم الى مواضع الهجوم أثناء الليل . ثم يؤتى بكل المدفعية قريبا من الخط الأمامى فى تستر وخفاء . وتفتح نيرانها دون أن يسبقها تمهيد « تسجيل » (أى ضبط المرمى وما الى ذلك) . وعلاوة على ذلك فان استعدادات الهجمات المتوالية التى تتعاقب وراء بعضها بعضا فى النقط الأخر كان من شأنها أن تحير المدافعين فى حين تبقى على استعداد لما يأتى به المستقبل .

ولكن ليس هذا كل شيء . فان " لودندورف " كان قد استنتج من تجارب حركات الحلفاء العرضية التى حصلت على غير طائل أن « من الضرورى مراعاة التكتيك قبل مراعاة الاغراض الاستراتيجية التى من العبث التوجه اليها ما لم يكن الفوز التكتيكى فى الامكان » . وهذه حقيقة لاشك فيها ما دام ليس هناك اقتراب استراتيجى غير مباشر . ومن ثم كانت التكتيكات الحديثة فى الخطة الألمانية لا بد أن تصحبها استراتيجية حديثة . لأن كلا منهما يستنتج من الاخر . وكلاهما قائم على مبدأ حديث أو تجدد بعد هجر — هو اتباع خط أقل مقاومة (أى الخط الذى تكون فيه المقاومة أقل مما فى غيره) . ولكن ظروف سنة ١٩١٨ فى فرنسا جعلت مجال أقل الخطوط انتظارا (الخط الذى لا يتوقع العدو منه الهجوم) . محدودا فضلا عن أن "لودندورف" لم يحاول أن يسلكه . ولكن مع وجود الجيوش المتحاربة منتشرة أمام بعضها بعضا ومتماسة على طول خط المتاريس الشاسع الامتداد فان اختراق أحد الطرفين خط الطرف الآخر بسرعة واسراعه فى استغلال هذا النفوذ على طول الخط الذى يكون أقل مقاومة من غيره قد يؤدى به الى غاية هى فى العادة لا يمكن الوصول اليها الا بسلوك خط هو أقل ما ينتظره العدو (أى أقل الخطوط انتظارا) .

أما النفوذ فقد كان سريعا وأما الاستغلال فجاء على عجل. ومع ذلك فان الخطة فشلت. فما هو مكان الخطأ ؟ فالانتقاد العام الذى حصل على أثر هذا الحادث و بعد الحرب هو أن التحيز التكتيكى أدى " بلودندورف " لأن يغير اتجاهه و يشتت قوته لكى يحشد جنوده على النجاح التكتيكى ، على حساب الغاية الاستراتيجية . فكان يظهر ، وقد قيل : ان ذلك المبدأ خاطئ . غير أن فحص الأوراق الرسمية الألمانية عن كثب وهى التى أصبحت فى اليد ، والأوامر التى أصدرها " لودندورف " نفسه والتعليمات التى أعطاها، كل هذه تلقى ضوءا جديدا على هذه المسألة. والذى يظهر، فى الواقع، هو ان الخطأ الحقيق فى أن" لودندورف" لم ينفذ عمليا المبدأ الذى انتهجه نظريا . فهو إما انه لم يدرك تماما مغزى هذه النظرية الاستراتيجية الحديثة ، و إما انه خشى عواقبها . لأنه فى الواقع شتت جزءا كبيرا من جنوده الاحتياطية أكثر مما يلزم جريا وراء اصلاح فشله التكتيكى والاستعاضة عنه . ثم انه بقى مترددا ، أطول مما يلزم ، فى البت فى أمر استغلال فوزه التكتيكى .

فان المصاعب ابتدأت حتى فى اختياره نقطة للهجوم . وهذا الهجوم كلفت به الجيوش السابع، والثانى ، والثامن على جبهة اتساعها ٤٧ ميلا بين " اراس" و"لافير" . وكانت الفكرة تحوم حول أحد اقتراحين : أحدهما الهجوم على جانبى زاوية "فردون" الخارجة ولكنه رفض بحجة عدم صلاحية الأرض ، وأن اختراق خطوط العدو لا يكاد يؤدى الى نتيجة حاسمة ، وأن الجيش الفرنسى قد استعاد قوته ونشاطه بدرجة فائقة بعد أن قضى نحو سنة فى دور النقاهة لايزعجه شىء . والآخر هجوم بين " ايبر" و " لز" وهذا الاقتراح وان كان وقع لدى "وتسل" ، المستشار الاستراتيجى " للودندورف" موقع القبول وعضده البرنس "روبرخت" قائد الجبهة بين "سان كوانتان" والبحر الا أنه رفض بحجة أنه يلتقى بكتلة الجيش البريطانى الرئيسية ، وأن الأرض المنخفضة يتأخر جفافها .

فوقع الاختيار على قطاع " اراس" " لافير" بسبب أنه فضلا عن ملاءمة أراضيه فانه كان أضعف قطاع فى دفاعاته، ومدافعيه ، وجنوده الاحتياطية . وعلاوة على ذلك فقد كان قريبا من نقطة اتصال الجيشين الفرنسى والبريطانى . وكان فى مأمول " لودندورف" أن يفصلهما عن بعضهما ثم يسحق الجيش البريطانى سحقا لاعتقاده أنه قد ضعف ضعفا كبيرا لسبب ما بذله من المجهود فى " ايبر" . ولكن مع كون هذا القطاع ضعيفا نسبيا حقيقة بصفة عامة فان التفصيل كان منحلا وليس قرين الصحة . فان ثلثه الشمالى كان قويا وكانت ترابط به قوة كبيرة هى الجيش الثالث البريطانى وقوامه ١٤ فرقة (٤ فرق احتياطى) بينما كان سواد الجنود الاحتياطية البريطانية موجودا فى ذلك الجناح فضلا عن امكان وصول المدد ، وقد وصل فعلا اليه من الجيوش البريطانية الأخرى التى كانت جهة الشمال أسرع من وصولها الى غيره . أما الثلثان الباقيان من هذا القطاع الذى نزلت به الضربة الألمانية فكان يرابط

فيهما الجيش الخامس البريطانى وكان يرابط فى القسم الوسطى منه الذى يحابه الجيش الثانى الألمانى ٧ فرق (٢ احتياطى) والجزء الجنوبى المجابه للجيش الألمانى الثامن عشر كان يرابط فيه ٧ فرق (فرقة احتياطى).

غير أن "لودندورف" أعطى جيشه السابع عشر الموجود بالقرب من "اراس" ١٩ فرقة للهجوم الافتتاحى، بجناحه الأيسر فقط، على جبهة اتساعها تسعة أميال ونصف ميل، وجنوبى منه جاء الجيش الثانى. ولما كان مقررا أن الزاوية الخارجة البريطانية الكائنة جهة "كمبراى" لا تهاجم هجوما مباشرا، بل تترك بارزة الى الأمام، كان هذا الجزء البالغ اتساعه ٤ أميال محتلا احتلالا وافيا بفرقتين ألمانيتين. وكان مع الجيش الثانى ١٨ فرقة لجبهة هجومه وهى تسعة أميال ونصف ميل. ثم جاء الجيش الثامن عشر فى منتهى الجنوب وعلى كلا جانبى "سان كوانتان" وقد أعطاه "لودندورف" ٢٤ فرقة فقط ليهاجم بها جبهة اتساعها ٢٠ ميلا. ومن ذلك نرى أن قوته كانت نصف قوة الجيشين الآخرين النسبية. فهو على الرغم من المبدأ الذى اتبعه كان يوزع قوته بحسب قوة العدو. ولم يحشدها أمام أضعف مقاومة. وقد أكد ذلك بالأكثر، الاتجاه الذى أعطاه فى أوامره. فكان المقرر أن يبذل المجهود الرئيسى شمالى نهر "السوم". وكان على الجيشين السابع عشر والثانى بعد نفوذهما من الخط واختراقه أن يدورا الى الشمال الغربى ويضغطا الجيش البريطانى فيدفعاه الى الوراء نحو الساحل، فى حين كان النهر والجيش الثامن عشر يحرسان الجناح. أما الجيش الثامن عشر فكان عبارة عن مجرد حرس جنبى تعرضى. وهذه الخطة قضى عليها بأن تتغير تغيرا كليا فى التنفيذ وأن يكون لها مظهر اتباع أقل الخطوط مقاومة لأن "لودندورف" نال فوزا سريعا حيث كان يرغبه قليلا، وأخفق حيث أراد الفوز أكثر مما فى أى مكان آخر.

فبدأ الهجوم فى ٢١ مارس وقد ساعد على المفاجأة وجود ضباب فى الصباح المبكر. ولكن بينما نجحت الهجمة فى النفوذ تماما جنوبى نهر "السوم" حيث كان الدفاع — وكذلك أيضا القوة الهاجمة — أضعف مما فى أى مكان آخر، أعيقت بالقرب من "أراس". فكان لاعاقتها رد فعل على كل الهجوم شمالى النهر. فمثل هذه النتيجة كان شيئا مؤكدا. غير أن "لودندورف" تمادى فى الاخلال بمبدئه الجديد وقضى الأيام التالية فى محاولة بعث الحياة من جديد فى هجمته على جبهة "أراس" البسطيونية، الجيدة التحصين والمدافعة، محتفظا بهذا الاتجاه بصفته الخط الرئيسى لمجهوده. وفى نفس الوقت كان يقبض اليه عنان الجيش الثامن عشر الذى كان يزحف فى الجنوب دون أن يلق مقاومة جدية. وحتى فى يوم ٢٦ مارس أصدر له أوامر يمنعه من عبور نهر "الآفر" وحتم عليه أن ينظم حركته على حركة جاره، الجيش الثانى، الذى كان هو الآخر متأخرا بسبب الجيش السابع عشر الذى كان تقدمه محدودا جدا بالقرب من "أراس". وهنا نرى أن "لودندورف" كان فى الحقيقة مصمما على تحطيم الجيش البريطانى بتحطيم أقوى

قطاعاته مقاومة ، باقتحام مباشر . ولأن ذلك ملك عليه مشاعره أخفق فى مسعاه حتى فات الأوان . وعندها ألقى بثقل جنوده الاحتياطية الى الخط الذى هو أقل الخطوط مقاومة ، جنوبى نهر "السوم" . ثم ان الدورة التى كان فى النية القيام بها الى الشمال — الغربى ربما كانت حصلت لو أنها جاءت بعد الخلوص من الجناح أى قواته . وبذا يمكن توجيهها الى مؤخرة جبهة "أراس" البسطيونية . وفى ٢٦ مارس ظهر أن الهجوم شمالى نهر "السوم" (بالجناح الأيسر من الجيش السابع عشر والجناح الأيمن من الجيش الثانى) كان آخذا فى الضعف الذى هو ثمن النجاح الذى أحرزه بكل مشقة . أما جنوبى نهر "السوم" فكانت ميسرة الجيش الثانى قد وصلت الى صحرا ميادين نهر "السوم" القديمة ، فعرقلتها وأربكتها — اذ عطلت السير واستيراد المؤن . فالذى كان مستمرا فى الزحف دون ابطاء هو الجيش الثامن عشر وحده .

وهذا الموقف أدى "بلودندورف" لأن يتخذ خطة جديدة ولكنه لم يترك القديمة . فأصدر أوامره بالقيام بهجوم جديد مباشر فى ٢٨ مارس على الأراضى المرتفعة القريبة من "أراس" تقوم به ميمنة الجيش السابع عشر ، ويعقبه هجوم يقوم به جيش سادس شمالى ذلك المكان مباشرة بين "فيمى" و "لاباسيه" . غير أن حسن الموقف جنوبى نهر "السوم" جعله يعين "أميان" لتكون الغاية التى يقصدها الجيش الثانى . وحتى حينذاك فانه منع الجيش الثامن عشر من الاندفاع ليلتف حول جناح المقاومة الآنية من "أميان" ، بدون أوامر جديدة ! فانه لما جعل "أميان" غرضا اضافيا رئيسيا فلا بد من الاستيلاء عليها باقتراب مباشر فوق أرض وعرة .

وفى ٢٨ مارس بدأ الهجوم على "أراس" دون أن يحجبه ضباب أو تستره مفاجأة . وفشل فشلا تاما أمام المقاومة التى كان الجيش الثالث تحت قيادة "بنج" قد استعد لها استعدادا جيدا . وعندئذ فقط ترك "لودندورف" فكرته الأصلية ووجه مجهوده الرئيسى و بعض ما تبقى من جنوده الاحتياطية الى "أميان" . ولكنه فى نفس الوقت أمر الجيش الثامن عشر بالبقاء فى مكانه يومين . فلما تجدد الهجوم فى ٣٠ مارس كانت قوته قليلة ولم يتقدم الا قليلا أمام المقاومة التى تقوت وازدادت صلابة بما أتيح لها من الوقت ، وكانت تعاونها الجنود الاحتياطية التى أخذت تتدفق الى خط القتال الذى كان قد تقوس الى الداخل . وهذا هو أول يوم اشتبكت فيه مدفعية الألمان فى القتال بكل قوتها بعد أن وصلت متأخرة عن المشاة . وقام الألمان فى ٤ أبريل بمجهود آخر بخمسة عشر فرقة منها ٤ فقط كانت جديدة . فكان نجاحهم أقل من سابقه . وعند ذلك أوقف "لودندورف" الهجوم فى اتجاه "أميان" خشية أن يضطر الى التدرج الى حرب الانهاك . وهو فى ذلك كله لم يلق بقوته فى أى وقت من الأوقات على طول خط الشق الذى بين الجيشين البريطانى والفرنسى . ومع كل فان "بيتان" فاتح "هايج" فى ٢٤ مارس بأنه اذا استمر تقدم الألمان على طول هذا الخط فانه سيضطر الى سحب الجنود الفرنسية الاحتياطية نحو الجنوب — الغربى لتستر باريس . فما أقل مقدار الضغط الذى كان الألمان فى حاجة اليه

فوق ضغطهم ليحولوا الشق البسيط الى بون شاسع ! وهذا دليل آخر على الحقيقة التاريخية وهى أن الوصلة (أى مكان أو نقطة اتصال جيشين) هى أكثر النقط احساسا وأصلحها للهجوم. وأيضا أن النفوذ بين قوتين أو وحدتين يكون أشد خطرا اذا كانت القوتان منضمتين كتفا لكتف مما اذا كانت احداهما منفصلة عن الأخرى و بعيدة عنها وكل منها قائمة بذاتها .

فأبقى "لودندورف" جزءا كبيرا من جنوده الاحتياطية مرابطا أمام القوس الواسع البارز الى الأمام جنوبى "أراس" ، والتفت الى اطلاق هجمة جديدة شماليها وان لم يكن واثقا منها كثيرا . ففى ٢٥ مارس كان قد أمر باعداد هجمة ضيقة النطاق بين "لاباسيه" و"أرمنتيير" لتكون خطوة فى سبيل توسيع الجزء الذى اخترقه . فانه بعد اخفاق هجومه على "أراس" فى ٢٨ مارس كان قد توسع فى خطته . فالهجوم جنوبى "أرمنتيير" كان مقررا أن يعقبه هجوم آخر شماليها بعد ٢٤ ساعة يجعل المدينة بارزة الى الأمام . فلما صدر أمر الهجوم متأخرا لم يتم الاستعداد له الا فى ٩ أبريل، وحتى فى ذلك التاريخ كان القصد منه مجرد تشتيت فكر العدو. غير أنه لما صادف نجاحا مدهشا سريعا ، ساعده عليه الضباب فى الصباح المبكر ، ضد قطاع صار ضعيفا ، أخذ "لودندورف" يحوله الى مجهود كبير شيئا فشيئا . ففى ٩ أبريل انقضت ٩ فرق ألمانية معها ٥ فرق أخرى احتياطية على فرقة واحدة برتغالية وفرقتين بريطانيتين على جبهة اتساعها ٩ ½ أميال جنوبى "أرمنتيير". وفى اليوم التالى هجمت ٤ فرق شمالى "أرمنتيير" على جبهة اتساعها ٥ ½ أميال . ولما أخذت المقاومة تزداد صلابة جاءت فرق جديدة الى القتال وراء بعضها بعضا حتى بلغ عدد ما استخدم منها فى نهاية الأسبوع الأول من مايو ما ينوف على ٤٠ فرقة . وبهذه الكيفية انحدر "لودندورف" الى حملة انهاك .

وكان البريطانيون على مقربة من قواعدهم ومن البحر بدرجة خطرة ولكن مقاومتهم أوقفت سيل الألمان بعد أن غزوا عشرة أميال ووصلوا الى مكان قريب من محطة اتصال السكة الحديدية الهامة وهى "هازيبروك" . وبعد ذلك حاول "لودندورف" انزال ضربة فى ١٧ أبريل تتلاقى لها جنوده على جانبى "ايبر"، ولكن "هايج" سبقها بعمل غير مباشر وأبطل عملها ، بوجه التقريب ، بادارة خطه الى الوراء فى بحر الثمانية والأربعين ساعة السابقة لها . ولما خاب هذا المشروع عاد "لودندورف" الى هجوم مباشر محض جنوبى "ايبر" حيث كانت جنود الفرنسيين الاحتياطية قد وصلت لتتسلم جزءا من الخط. ولما وقعت الضربة على الوصلة (نقطة اتصال الجيشين) شقتها فى "كيمل هيل" ولكن "لودندورف" أوقف استغلالها خوفا من ضربة مضادة . وفى كل هذه المدة كان يقتر فى ارسال جنوده الاحتياطية فتصل متأخرة وقليلة العدد بدرجة لايتأتى معها نجاح . ويظهر أنه بعد فشل حركاته التعرضية الأولى زالت ثقته فى الثانية . وبعد أن بذل مجهودا أخيرا فى ٢٩ أبريل أوقف العمل . غير أنه كان ينوى أن يؤجل حركاته موقتا الى أن يستطيع أن يجر الجنود الاحتياطية الفرنسية الى جبهتهم مصمما

بعد ذلك ان يضرب البريطانيين فى "فلاندرز" ضربة نهائية حاسمة . فقد كان قبل ذلك أمر بالاستعداد للهجوم على قطاع "شمين — ده — دام" بين "سواسون وريمز" بغية القيام به فى ١٧ أبريل . ولكن الاستعداد لم يتم الا فى ٢٧ مايو — ويرجع بعض السبب فى هذا التأخير الى كونه أطال حركاته التعرضية فى "فلاندرز" فترتب على أطالتها استنزاف قوة جنوده الاحتياطية . وقد تنبأ فرع الاستعلام (المخابرات) من مركز الرياسة العامة الأمريكية بالمكان الذى سيحصل فيه الهجوم وبتاريخه بوجه التقريب . ولكن لم يصغ أحد الى ما أنذر به هذا الفرع الا فى ساعة متأخرة حينما أيد هذا الخبر أحد الأسرى فى ٢٦ مايو . وحينذاك كان قد فات الأوان على تقوية الدفاع سوى وضع الجنود على قدم الاستعداد . ولكن هذا الانذار أمكن الجنود الاحتياطية من الشروع فى الحركة . وفى اليوم التالى وقعت الضربة من ١٥ فرقة على ٧ فرق . ومع أن هذه الهجمة لم يساعدها أى حجاب من الضباب فانها اكتسحت ما أمامها ومرت فوق نهر "الاين" فوصلت نهر "المارن" فى ٣٠ مايو . ولكن حصل هنا أيضا أن نال "لودندورف" شيأ من الفوز لم يعدّ له عدة ولم يكن راغبا فيه . فالمفاجئ هو الذى فوجئ . وهذا الفوز الافتتاحى لم يقتصر على اجتذاب كمية عظيمة من الجنود الاحتياطية اليه أكثر مما يلزم بل أبطل تأثيرهم . لأن جنود الحلفاء الاحتياطية تحركت معهم فى وقت واحد .

ومع ذلك فان مدى هذا الفوز الافتتاحى يستحق التحليل نظرا لعدم وجود ضباب . ولأن هذا الهجوم لم يكن زائدا فى تفوق جنوده عددا عما سبقه الا شيأ يسيرا . والذى يظهر هو أن السبب فيه يرجع بعضه الى تحويل انتباه الحلفاء وجنودهم الاحتياطية الى مكان آخر . وبعضه الى اتباع خط أقل مقاومة بدرجة بعيدة الحد فى الدقة . وبعضه يرجع الى حماقة القيادة الفرنسية المحلية ، فانها أصرت على تجمع المشاة كلا فى المواقع الأمامية فكانت وهى مكدسة طعمة لنيران مدافع الألمان . ثم ان المدفعية ، والجنود الاحتياطية المحلية ، ومركز رياسة الدفاع كانت كلها الى الأمام أكثر مما يلزم . فكانت النتيجة أن وقع أعظم درجات الانهيار على أثر نفوذ الألمان من الخط . وبذلك استرد الهجوم تأثير المفاجأة التكتيكى الذى كان فقد بعضه فى اليوم السابق لوقوعه . لأنه مادام أن الغرض من المفاجأة هو زحزحة العدو فان تأثيرها واحد سواء كان العدو قد بوغت نائما بواسطة الحيلة ، أو سمح لنفسه بأن يقع فى الشرك وعيونه مفتوحة .

وكان "لودندورف" الآن أوجد فى جبهة الحلفاء ثقوبين بارزين هائلين وآخر أصغر منهما ، وكانت محاولته التالية إبراز قطاع "كومبنيه" الى الأمام (بضغط أجنابه) وهو القطاع الواقع بين تقويسى "اميان" و"المارن" . ولكن فى هذه المرة لم تحصل مفاجأة فجاءت الضربة الموجهة الى غربى القطاع فى ٩ يونيه متأخرة عن الضغط الحاصل جهة الشرق . وهنا حصل توقف لمدة شهر . وكان "لودندورف" يرغب أن ينزل ضربته الحاسمة التى كانت تتوق اليها نفسه منذ

زمن بعيد، بالبريطانيين الموجودين ببلاد البلجيك ولكنه رأى أن جنودهم الاحتياطية مازالت قوية ولذا عاد الى تصميمه على تشتيت أفكار العدو مرة أخرى مؤملا أنه اذا أنزل ضربة شديدة بالجنوب فانها تستجلب الجنود الاحتياطية البريطانية من مكانهم . وكان أخفق فى ابراز قطاع "كومبنية" الى الأمام غربى زاويته الخارجة الموجودة على "المارن" . فكان الآن على وشك محاولته نفس هذه الطريقة شرقى تلك الزاوية بأن يهاجم كلا جانبى "ريمز" ولكن كان فى حاجة الى فترة للاستراحة والاستعداد ، فكان هذا التأخير فيه القضاء المبرم اذ أتاح للبريطانيين والفرنسيين فرصة يستعيدون فيها نشاطهم والأميركيين يستجمعون قوتهم .

ويصح القول بحق ان النجاح التكتيكى الذى نالته ضربات "لودندورف" كان سبب مصائبه بمعنى انه كان يتأثر بنجاح هذه الضربات ويتمادى فى كل ضربة منها أطول وأبعد مما يلزم فاستنفد جنوده الاحتياطية : وأوجد مسافة بين كل ضربة والأخرى ما كان يجب أن تكون ، ثم انه لم يتبع خط أقل درجات المقاومة ، بل كان يتبع خط المقاومة التى تزداد صلابة . لأنه بعد اختراقه الخط لأول مرة كانت كل هجمة من هجماته قد صارت اقترابا مباشرا محضا من الوجهة الاستراتيجية . وكان قد دفع ثلاثة أسافن عظيمة (أى نفذ بجنوده فى ثلاثة مواضع) ولكن لم ينفذ منها واحد بالقدر الكافى لأن يقطع شريانا حيويا . وهذا الفشل الاستراتيجى أوجد فلولا فى جبهة الألمان تستجلب الضربات المضادة الجانبية .

وفى ١٥ يوليه دفع "لودندورف" هجومه الجديد، ولكن وقوع هذا الهجوم لم يكن سرا . فخاب شرق "ريمز" بسبب ما لاقاه من الدفاع المرن . أما غربى "ريمز" فان نفوذ الألمان عبر نهر "المارن" زادهم توغلا فى الجائل وتغلغلا فيها لدرجة أدت الى سقوطهم — لأن "فوش" وجه ضربة الى الجنب الآخر من زاوية "المارن" الخارجة استعد لها منذ مدة طويلة . وهنا قام "بتان" الذى كان يدير هذه العملية بادارة المفتاح الذى كان ينقص "لودندورف" . فاستخدم كلا من الدبابات الخفيفة وجعلها فى مقدمة هجمة مفاجئه على طريقة "كمبراى" . فتمكن الألمان من ابقاء باب الزاوية الخارجة مفتوحا وقتا كافيا لسحب جنودهم وارجاعها الى مكان أمين ثم عدلوا خطهم بجعلوه مستقيما . ولكن جنودهم الاحتياطية نقصت فاضطر "لودندورف" فى بادئ الأمر لارجاء حركاته التعرضية فى "فلاندرز" ثم بعد ذلك تنحى عنها وتركها . فانتقلت القوة الانشائية الى جانب الحلفاء بصفة قطعية نهائية .

والضربة المضادة التى قام بها الحلفاء على نهر "المارن" تستدعى البحث والتمحيص . فان "بتان" كان طلب من فوش أن يجمع مجموعتين من الجنود الاحتياطية واحدة منها فى "بوفيه" والأخرى فى "ايبرنيى" للقيام بضربة مضادة ضد جناح أى هجوم يقوم به "الألمان" وعلى أثره مباشرة . وكانت أولاهما تحت قيادة "مانيين" فاستخدمت لاحباط الهجوم الذى قام به الالمان فى ٩ يونيه ، ثم تحولت الى موقع على الوجهة الغربية لزاوية المارن الخارجة .

على أن "فوش" كان وضع خطة باستخدامها فى حركات تعرضية مباشرة للزحف على مركز السكة الحديدية فى "سواسون" . وبينما هم يستعدون لذلك اذ بلغت مصلحة الاستعلام (المخابرات) أخبار أكيدة بأن الألمان على وشك أن يهجموا بالقرب من "ريمز" . ولذلك صمم فوش على أن يسبقهم بضربة ينزلها بهم فى ١٢ يونيه ، لا أن يرد عليهم بها . غير أن "پتان" كان له رأى يخالف ذلك هو أن يدع الألمان يتقدمون ويوقعون أنفسهم فى الشرك ثم يضربهم فى مؤخرة جناحهم . ومن الغريب أن الجنود الفرنسية تصادف أن كانت على غير استعداد فى يوم ١٢ يونيه وعلى ذلك نشبت المعركة بناء على فكرة "پتان" أكثر منها على فكرة "فوش" . أكثر فقط لا بالكلية . لأن خطة "پتان" كانت أن يتخلى أولا عن موقعه الأمامى للهاجمين بأن يرابط فيه مرابطة ضعيفة ثم يوقفهم أمام الموقف الخلفى الذى لم يمسه ضرر . وعندها يقوم بهجمات مضادة محلية حتى يمكن استدراج العدو الى اشراك جنوده الاحتياطية فى القتال فى الفتحات التى يوجدها هجومهم على كلا جانبى "ريمز" . وأخيرا يدفع "مانيين" الى الحركات التعرضية المضادة الحقيقية نحو الشرق على طول خط قاعدة زاوية "المارن" الخارجة الرئيسية . وبذا قد يتمكن من اغلاق الجزء الضيق الذى تنتهى اليه الساحة الواسعة التى تكون القوات الألمانية الموجودة جنوبى نهر "الاين" محبوسة فيها .

ثم ان الحوادث اشتركت مع "فوش" فى تعديل هذه الفكرة . فان الهجوم الألمانى شرق "ريمز" أحبطه الدفاع المرن — وهو صورة من صور الاقتراب التكتيكى غير المباشر . أما غربى "ريمز" فان القواد أصروا على التشبث بطريقة الدفاع العتيقة التى لا مرونة فيها وكانت النتيجة أن انكسر خطهم . ونفذ الألمان الى ما وراء نهر "المارن" واضطر "پتان" تلافيا للخطر لأن يستخدم القسم الأعظم من جنوده الاحتياطية التى كان أعدها للطور الثانى . ولكى يستعيض عنهم صمم على أن يأخذ من "مانيين" جنودا تحل محلهم ، وأجل ضربة "مانيين" المضادة . مع أن فوش أمر بها وحدد لها يوم ١٨ أغسطس . فلما بلغ "فوش" ذلك ألغاه فى الحال ومن ثم نشأت الضرورة للتخلى عن الطور الثانى وتمكنت الجنود الاحتياطية الألمانية من صد "مانيين" وابقاء الجزء الضيق مفتوحا . وأصبحت الضربة المضادة مجرد ضغط مباشر محض واقع من جنود آتية من جهات مختلفة متلاقية عند الهجوم ، كما فعل "فالكنهاين" فى بولندا فى سنة ١٩١٥ ، فضغطت الألمان وأرجعتهم وأخرجتهم من كل تلك الساحة .

وكانت فكرة "فوش" الرئيسية منذ ذلك الحين المحافظة على القوة الانشائية وعدم اعطاء العدو فرصة للراحة بينما تتجمع جنود "فوش" الاحتياطية وتتراكم . وأول خطوة خطاها كانت تحرير خطوطه الحديدية الجانبية بسلسلة من الحركات التعرضية المحلية . قام بأولاها "هايج" فى ٨ أغسطس أمام "أميان" . ذلك أن الجيش الرابع الذى يقوده "رولنسون" ضوعف

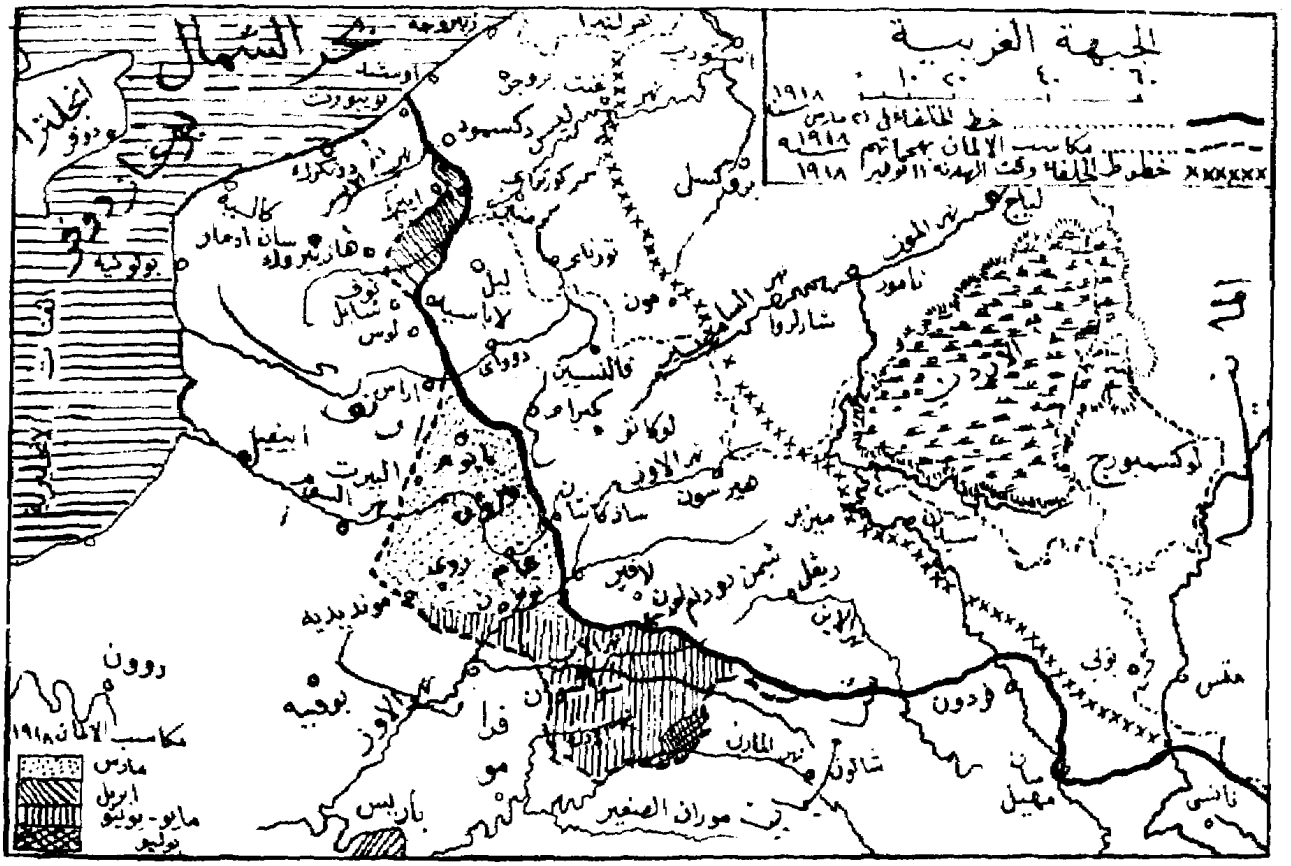
الجبهة الغربية
٦٠ ٤٠ ٢٠ ١٠ ٠
خط الجبهة في ٢١ مارس ١٩١٨
مكاسب الالمان بهجماتهم ١٩١٨
خطوط الجبهة وقت الهدنة ١١ نوفمبر ١٩١٨
بحر الشمال
انجلترا
بلجيكا
فرنسا
لنس
بيتون
بولونيه
كاليه
سان اومار
فارنبروك
بوف
ليل
لاباسيه
دوواى
فالنسين
كمبراى
بيرون
البيرت
السوم
بوزيير
بوزوى
موندبديه
بوفيه
بابوم
فرا
مو
باريس
مون
شارلروا
نامور
ليج
نهر الموز
لوكسمبورج
ميزيير
ريثل
الارجن
ستنى
فردون
شالون
مهيل
نانسى
مقس
مكاسب الالمان ١٩١٨
مارس
ابريل
مايو - يونيو
يوليو

عدده بتدبير يشف عن مهارة فى الحذر والخدعة وتقدم للهجوم — مسبوقا بـ ٤٥٠ دبابة — وفاجأ العدو مفاجأة ربما كانت فى أولها أتم وأكمل مفاجأة وقعت فى الحرب. فهى وان كانت أوقفت سريعا — لأن اتجاه ضغطها كان سببا طبيعيا لايقافها — الا أن صدمتها الافتتاحية المفاجئة كانت كافية لزعزعة توازن القيادة العليا الألمانية من الوجهة المعنوية . ولما اقتنع "لودندورف" بافلاس جنوده أدبيا أعلن أن الصلح لابد أن يُسعى له بالمفاوضات . وفى نفس الوقت "لا بد أن يكون الغرض من استراتيجيتنا شل ارادة العدو للحرب تدريجيا بانتهاج الدفاع الاستراتيجى" .

غير أن الحلفاء أوجدوا فى نفس الوقت طريقة استراتيجية جديدة . فان "فوش" بث هذا الايعاز لأول مرة بأن أمر بهجمات تقع على التوالى فى نقط مختلفة . ثم ان "هايج" أكمل تطور هذه الطريقة بعدم اتفاقه مع "فوش" فى تعليماته التى أصدرها باستمرار الجيش الرابع فى الضغط الجبهى (الأمامى) فلم يستأنف زحفه الا بعد أن ضرب كل من الجيشين الثالث والأول ضربته . ومنذ ذلك الحين أصبح تعرض الحلفاء عبارة عن سلسلة من الضربات السريعة فى نقط مختلفة ، وان كان ذلك قاصرا على الدائرة التى يسيطر عليها كل من "هايج" و"بتان" . وكانت كل ضربة تنتهى بمجرد ما تزول قوتها الدافعة الأصلية . فكانت كل منها ترمى الى تمهيد السبيل للأخرى والكل قريبين من بعضهم بعضا بالدرجة الكافية فى الزمان والمكان ليكون لكل جيش رد فعل على الآخر . وبهذه الوسيلة لاقى "لودندورف" عائقا يعوقه فى تحويل جنوده الاحتياطية لتبادر بالاستعداد لتلقى الضربات . ووضعت ضريبة على ما تبقى من جنوده الاحتياطية أخذت تتصاعد ، كلفت خزينة الحلفاء كلفة اقتصادية . وهذه الطريقة وان لم تكن اقترابا غير مباشر فى الحقيقة ، كانت على الأقل تظهر انها قريبة منه ، وان لم تسلك الخط التى لا ينتظره العدو فانها كانت تتجنب خط الانتظار الطبيعى . وان كانت لم تسلك خط أقل مقاومة ، فانها لم تستمر مطلقا على طول الخط الذى تزداد فيه المقاومة صلابة . فهى فى الواقع صورة سلبية للاقتراب غير المباشر .

ونظرا للانحطاط الذى طرأ على القوات الألمانية من حيث القوة المعنوية والقوة العددية فان هذه الطريقة كانت كافية ، لأجل معلوم على أقل تقدير ، لضمان استمرار الزحف واضعاف مقاومة الألمان تدريجيا . ثم ان الأدلة الواضحة على هذا الانحطاط وما ترتب عليه من وثوق "هايج" من امكانه أن يكسر خط "هندنبورج" حيث كانت الجنود الاحتياطية الألمانية أقوى منها فى أى مكان آخر جعلا "فوش" يترك هذه الطريقة ويقوم فى آخر سبتمبر بحركات عامة تقع فى آن واحد .

وهذه الخطة كانت ترمى الى ضغط مباشر يأتى من جهات مختلفة على الزاوية الخارجة الكبيرة المكونة من الجبهة الألمانية فى فرنسا بحيث تتلاقى الجيوش القائمة بها وتطبق على

العدو. وكان المأمول ان جناحى الحلفاء المؤلف احدهما من البريطانيين والآخر من الأميركيين حينما ينطبقان يفصلان قسما عظيما من الجيوش الألمانية الموجودة بالزاوية الخارجة عن بقية جيوشهم ويقطعان رجعته . وهذا الأمل كان أساسه أن ناحية "الاردنز" تكاد تكون سورا خلفيا لا يستطاع المرور منه وله منافذ ضيقة فى الأجناب . ويصح هنا أن يقال عرضا ان هذا الرأى فيما يختص "بالاردنز" لا بد أن يكون منشأه عدم معرفة ذلك الاقليم . لأن فيه طرقا جيدة وأغلب الأقاليم ذاته جهات وعرة لا جبلية .

وهذه الخطة كانت فى الأصل بناء على اقتراح "پيرشنج" تشتمل على درجة معينة من الاقتراب غير المباشر . فان اقتراحه كان أن الجيش الأميركى يستغل نجاحه المحلى بازالة زاوية "سان ميهيل" الخارجة بزحفه نحو "بريى" والمرور على "متس" قصد التوصل الى اعتراض المواصلات الألمانية فى "اللورين" وتهديد خط رجعتهم الغربى الى نهر "الرين" . غير أن "هايج" عارض فى هذه الحركة بحجة أنها مشتتة عن هجمات الحلفاء الأخرى بدلا من أن تكون متجمعة عليها . وبناء على ذلك غير "فوش" خطته مهملا اقتراح "پيرشنج" وعلى ذلك اضطر الجيش الأميركى لأن يحول مجهوده نحو الغرب ويستعد للهجوم على قطاع "الموز" و"الأرجون" دون أن يترك له وقت للاستعداد أكثر من أسبوع واحد . وهنا كانت نتيجة الضغط المتواصل على طول الخط الذى تزداد فيه المقاومة صلابة ، عظم التكاليف والفوضى . فضلا عن أنه قد تبين أن هذه الحركة لم تكن ضرورية لتسهيل زحف "هايج" من خلال خط "هندنبورج" فان مجرى الحوادث كان فيه ما يدل على أن الاقتراب المباشر اذا توافر معه تفوق عظيم فى النيران وكانت قوة العدو المعنوية منحطة فانه يستطيع النفوذ الى موقع العدو ولكنه لا يستطيع تشتيته .

وفى ١١ نوفمبر وهو تاريخ الهدنة ، كانت القوات الألمانية ، بتضحية مخافرها الخلفية ، قد خرجت بسلام من الزاوية الخارجة ورجعت الى خط مستقيم أقصر من خطها الأصلى وكان زحف الحلفاء قد توقف فعلا وكان توقفه بسبب صعوبات اعاشة الجنود وتموينها فى الجهات التى أتلفها العدو أكثر مما كان بسبب المقاومة الألمانية . ففى هذه الظروف كان الاقتراب المباشر مساعدا للألمان على التسلل أكثر مما كان فى الامكان تعقبهم .

ولحسن الحظ لم يكن للطور الأخير من الحركات التعرضية العسكرية أهمية تذكر . فان الضربة الأدبية التى أنزلتها المفاجأة الأصلية فى ٨ أغسطس بالقيادة الألمانية أكملها اقتراب غير مباشر فى مسرح آخر بعيد كل البعد وجعلها ضربة مميتة . وتلك هى الحركات التعرضية التى قام بها الحلفاء فى جبهة سلانيك . فلما كانت موجهة الى قطاع أراضيه وعرة بدرجة أن كان المدافعون قليلى العدد نفذت منه بسرعة . وبمجرد ما حصل ذلك صارت البلاد الجبلية الصعبة عائقا يعوق المدافعين عن تحويل جنودهم الاحتياطية تحويلا جانبيا لاعاقة سير الزحف

على خط أقل مقاومة . ولما انشطر جيش البلغاريين الذين ملوا الحرب الى شطرين تمنوا عقد الهدنة . وهذا العمل المجيد لم يهدم أول دعامة لدول الوسط فحسب ، بل فتح أيضا الطريق للزحف على مؤخرة النمسا . ثم التهديد زاد قربا عند ما نزلت الحركات التعرضية الايطالية على الجبهة النمساوية التى كانت تزعزعت أدبيا واضمحلت ماديا ونفذت منها . إذ بمجرد تسليم النمسا على أثر ذلك أصبحت أراضيها وسككها الحديدية تحت تصرف الحلفاء بصفتها قاعدة للعمليات ضد الباب الخلفى لألمانيا . وقد قال الجنرال فون "غالويتس" لكبير الوزراء فى شهر سبتمبر أنه لو حصل ذلك ، ولم يكن إذ ذاك قد تحقق ، فانه يكون "حاسما" .

وهذا التهديد مع التأثير الأدبى الذى أحدثه الحصر البحرى — ذلك الاقتراب غير المباشر الآخر القائم على الاستراتيجية العظمى — كان لها وقع شديد على شعب جائع فاقد الأمل ، دفع الحكومة الألمانية فى الأيام الأخيرة نحو التسليم إذ كانا بمثابة مهمازين يخسان فى جنبى جواد جامح . على أن الذى جعل الجواد يجمح هو فرقعة السوط . وفرقعة السوط هى انهيار بلغاريا وقد عززتها أول الأخبار المنبئة بتجديد الهجوم الجبهى فى فرنسا .

فأسقط فى يد القيادة العليا — بضع أيام فقط . فكانت كافية . وفات أوان الاستفاقة . وفى ٢٩ سبتمبر عجلوا بقرار طلب الهدنة بحجة أن انهيار الجبهة البلغارية قد قلب الأوضاع رأسا على عقب "فان الجنود المقرر ارسالها الى الجبهة الغربية أرسلت الى بلغاريا بحكم الضرورة" وأن ذلك قد غير الموقف "تغييرا كليا" بالنسبة للهجمات التى كانت تقع آنئذ على الجبهة الغربية . لأنها "وان كانت قد صدت حتى الآن الا أنه لا بد أن يحسب حسابها" .

وهذه العبارة تشير الى التعرض العام الذى قام به "فوش" وكان الهجوم على جبهة "الموز" و"الأرجون" قد بدأ فى ٢٦ سبتمبر ولكنه فى ٢٨ منه كان قد توقف فعلا . وابتدأ هجوم فرنسى ، بلجيكى ، بريطانى فى فلاندرز فى ٢٨ ولكنه وان كان مقلقا كان يظهر عليه أنه ليس مهددا تهديدا حقيقيا . غير أن فى يوم ٢٩ كانت الضربة الرئيسية التى قام بها "هايج" تنزل بخط "هندنبورج" وكانت أخبارها الأولى مقلقة .

وفى ذلك الوقت العصيب استدعى البرنس "ماكس" ليكون كبير الوزراء ليفاوض فى أمر الصلح بحجة ما له من سمعة الاعتدال والشرف بين الدول . ولكى يساوم مساومة مثمرة دون الاعتراف بالهزيمة كان يحتاج الى فرصة يتنفس فيها قدرها "عشرة ، أو ثمانية أيام ، بل وحتى أربعة أيام ، قبل أن يعرض الطلب على العدو" وطلب هذه المهلة . غير أن "هندنبورج" لم يزد على أن أجاب بقوله "ان وخامة الموقف العسكرى لا تسمح بالتأخير" وأصر على "عرض طلب الصلح على أعدائنا فى الحال" .

وعلى ذلك عرض على الرئيس "ولسون" فى ٣ أكتوبر طلب لعقد هدنة فى الحال . وكان هـذا الطلب اعترافا صريحا للعالم بالهزيمة . وحتى قبل ذلك — فى أول أكتوبر — كانت القيادة العليا قد نخرت فى أساس جبهتها الوطنية بأن أعلنت هـذه الفكرة الى قادة الأحزاب السياسية فى اجتماع عقدوه .

وهذا التنوير الفجائى أعمى عيون الرجال الذين قضوا هذا الوقت الطويل وهم فى ظلام حالك . واستمدت منه عوامل الشقاق والسلام حافزا قويا يدفعها .

وفى ظرف بضعة أيام ازداد سرور القيادة العليا ، بل وتفاءلت خيرا ، حينما رأت أن النفوذ الى خط "هندنبورج" لم يعقبه اختراق فعلى لكل جبهة القتال والنفوذ منها . ثم جاءت أخبار أخرى مشجعة وهى أن قوة هجمات الحلفاء أخذت فى التراخى ، وخصوصا فى انتهاز الفرص . أما "لودندورف" فكان ما يزال يرغب فى الهدنة . ولكن لا لشىء الا ليريح جنوده قبل استئناف المقاومة ولكى يضمن سلامة انسحابهم الى خط دفاعى على الحدود أقصر من خطهم الحالى . وفى ١٧ أكتوبر بلغت به الحالة أن شعر بأنه يستطيع ذلك حتى من غير استراحة . وكان الباعث له على هذا الشعور طروء شىء من التنقيح والتعديل على فكره فى الحالة الراهنة . لا لأن الموقف قد تغير . فالموقف لم يكن فى حالة سيئة فى وقت ما مثل ما كان حينما وصفه فى ٢٩ سبتمبر . غير أن فكره الأول كان الآن قد سرى بين الدوائر السياسية والجمهور فى ألمانيا — وانتشر كما تنتشر تموجات الماء حينما يلقى فيه حجر . وشرعت "الجبهة الوطنية" تنهار بعد ذلك ولكن انهيارها كان أسرع من انهيار جبهة المعارك .

وفى ٢٣ أكتوبر أجاب الرئيس ولسون على مطالب الألمان بمذكرة طلب فيها ما هو بمثابة التسليم بغير قيد ولا شرط . أما "لودندورف" فانه أراد أن يستمر فى النضال بأمل أن الدفاع عن الحدود الألمانية دفاعا مثمرا قد يثبط من عزيمة الحلفاء . ولكن الموقف كان قد خرج عن حدود سيطرته لأن قوة ارادة الأمة كانت انهدمت وعاب الناس عليه نصيحته . وفى ٢٦ أكتوبر اضطر الى اعتزال الخدمة .

أما كبير الوزراء فقد بقى فى سنة من النوم لمدة ٣٦ ساعة من تأثير جرعة منومة تجاوزت الحد . ولما عاد الى ديوانه فى صباح ٣ نوفمبر لم تكن تركيا فقط قد أسلمت ، بل النمسا أيضا . فأصبح الباب الخلفى مفتوحا . وفى اليوم التالى قامت الثورة فى ألمانيا وانتشرت فى البلاد بسرعة ، وكان يؤجج نارها ابطاء مفاوضات الصلح بسبب امتناع القيصر عن التنزل عن العرش . وصارت الفرصة الوحيدة فى الاتفاق مع الثوار . وفى ٩ نوفمبر تخلى الأمير "ماكس" عن أعماله "لايبرت" الاشتراكى . وكان اذ ذاك مفوضو الألمان يتفاوضون مع "فوش" لعقد الهدنة وفى الساعة الخامسة من صباح ١١ نوفمبر أمضوا الشروط ، وفى الساعة الحادية عشر صباحا وضعت الحرب أوزارها .

أما نتيجة الحرب فقد بت فيها نهائيا فى ٢٩ سبتمبر، فى رأى القيادة الألمانية . فقد انكسر كل من "لودندورف" وزملاؤه ، وكان لانكسارهم دوى تجاوبت أصداءه جميع أنحاء ألمانيا . وهذا الدوى سرى فى البلاد لايلحقه شيء ولا يوقفه . فالقيادة قد تسترد هدوء أعصابها واعتدالها . والموقف العسكرى ذاته قد يتحسن . ولكن التأثير الأدبى قد أصبح حاسما كما فى أى حرب وقعت .

فمن بين الأسباب الأساسية لتسليم ألمانيا يرى، حينما تنجلى السحب التى كانت مغيمة على الحرب وينكشف الجو فى هذه الأيام التى أعقبتها و يظهر صفاؤه للعيان ، ان الحصر البحرى كان له شأن أعظم من غيره بكثير .

ففى وجود الحصر البحرى أصدق رد على التساؤل عما اذا لم يكن فى امكان الجيوش الألمانية الثبات والصمود فى حدود بلادهم لولا نشوب الثورة فيها . لأنه حتى لو أن الشعب الألمانى نشط لبذل أسمى مجهود له فى سبيل الدفاع عن أراضيه ، واستطاع أن يوقف زحف جيوش الحلفاء فان ذلك ما كان ليجدى شيئا سوى تأجيل النتيجة الأخيرة — بسبب تضييق القوة البحرية التى هى سلاح بريطانيا التاريخى .

على أن الفضل الأول فى تعجيل التسليم والحيلولة دون استمرار الحرب فى سنة ١٩١٩ يرجع للأعمال العسكرية . وهذا الرأى ليس من الضرورى، ولا من الطبيعى، أن يفهم منه أن فى اللحظة التى عقدت فيها الهدنة كانت قوة ألمانيا العسكرية قد كسرت، أو أن جيوشها قهرت قهرا حاسما . ولا أن منحة الهدنة كانت منحة خاطئة . بل ان تاريخ « المائة يوم » الأخيرة اذا غربل غثه من سمينه فانه يؤكد الدرس العريق فى القدم، وهو أن الغاية الحقيقية المقصودة من الحرب هى عقلية العاملين المتخاصمين لا أجسام جنودهما . وأن الموازنة بين النصر والهزيمة تدور على مايتأثر به العقل ، ولا تدور على الضربات المادية الا بصفة غير مباشرة . فان الذى هز أعصاب "لودندورف" ، أكثر من خسائره فى الأسرى والمدافع والأراضى ، انما هى صدمة المفاجأة وشعوره بعجزه عن مقابلة الحركات الاستراتيجية المحتملة الوقوع بما ينقضها ويبطل عملها .